LAILA AL-ATRASH

# ليلى الأطرش

# نساء على المفارق

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

على مفارق الطرق أشباحٌ هائمة
لنساءٍ بلا روح
تعبرُ الغصنَ ظلالٌ في الأمكنة
تحملُ روحَ حربها لم تكن لها
تنصهرُ لا واحدةً
يقتلُ حولَهُ والجثّةَ
روحٌ صامتةٌ أو منسرحة
صاخبةٌ أو هادئة
في اسمرارِ الملامس
وظلالٌ ورغدٌ لم يأتِ
إذ ترتدي شهرزاد
قصصًا وحكايات
من عالمٍ سارَ أسرارُه
وروحٍ طيبةٍ هائمة
يلمسُ ساقَ احتلالِ المكان
والذاكرة
تفككتْ زمنيتُه والطريق
وتبقى الذكرى

# شكر

لمشفقاً بما تعرف ، وتعتقد أن تجاربك لك وحدك ، وأنها لن تهم سواك ، حتى يطالبك بها غيرك .

صوت يؤمن أن في ذاكرتك ما قد يختلف ، يستفز فيك رغبة الاستعادة والبوح ، ويقنعك أن ما في عمرك قد يعني آخرين .

يهتف بك صوت من لم تلتق ، يحرضك أن تعيش ذاتك ، ويلح أن توثق لحظات تتصادم مع بشر والمكان ، حين عبرت تلك الحياة شوارع الترحال والتشظي ، كطير شاهر رهانه على درب .

إلى

كل من اعتقد أن في تجربتي ما يستحق الوقوف
إلى كل من طالبني أن أروي فاقتنعت
وإلى كل هذه الأسماء المختبئة في تلافيف الذاكرة
لهم شكري الجزيل

# المحتويات

- لالة السوداء ........................................ 11

- قالت ربي وسكت الرجال ........................................ 44

- ابنة السيد ... جبلة ........................................ 69

- عزة ... بهجة الرباط ........................................ 99

- راكبة من الدرجة الأولى ........................................ 129

- امرأة من المنطقة الحمراء ........................................ 149

- ليلة الشرف ... لا الدمّ ولا اعتراف ........................................ 167

الماسة السوداء

التقيت مريم عبد القادر في مدينة الجسور ، بتسبرغ الأمريكية خريف ٢٠٠٨ . مدينة يقطع سكانها ألفا وسبعمائة جسر إذا خرجوا منها و٧٦٠ إذا كانوا فيها .

جئنا مريم حميرا وزوجها الليبي حملتهما موجة إلى شاطئ قريب ، ويطلعها غير المتمتع في تربة خصبة يكبر إذ لامسها أشعة الشمس .

شعرها الأسود من سلالات القبائل الزنجية تشترك أمها على شرفة تطل على المحيط الأطلسي .. أنت ساحرة ذلك الجزء الغربي من القارة السمراء تطل على الأطلسي ، وقبل أن تضيق وتنكمش في خليج ربما عند تعمقها الجنوبي . . . لمك ملامح من القبائل الزنجية ووجه شابة إفريقية ، امتزجت فيها حلة ملامح أهل الشرق من القارة السمراء ، الصومال وإثيوبيا ، مع اللون الداكن للقبائل الزنجية في وسطها . .

أسمع مريم تلح فستانها في خيوطين من حريصة بلون أشرعة القوارب ، خوامها ربيع لم تستطع أرض إفريقيا أن تحجز انطلاقه ، فمضى سافرا خارج الحدود يبحث عن ذات يحققها .

كانت نصائح الوالدة تتصاعد مع نهاية كل خطوبة . . لربطها بخطبة الأم من مجتمع غريب ، لا تشبه قيمه ما تربت عليه مريم . . وتعرف أن فضاء البلد الإسلامي سيحمل حلولا كثيرة ، من حقها ودفعتها إلى عالم بعيد مشوب بالقلق وخشية القادم باختلافه ديانة وفكرا وحرية شخصية . .

ساحل الكاميرون بلاد عجيبة ، اختلطت فيه الأجناس والثقافات ، وخبرت فيه مريم طفلة امتزاج العرق واللون وتعدد اللهجات ، كبرت بين عمال وأطر وأسياد يجمعهم أشجار جلبت من الغابات الكثيفة . فالجد كبير تجار الخشب في الكاميرون ، وأكبرهم سنا وثروة ، تشربت مريم تركيبة فريدة من الاعتدال وقبول الآخر . . ربتها خادمة مسلمة بيضاء ، وتعلمت في مدارس تبشيرية مسيحية مختلطة ، وصادقت أطفالا بيضا وسودا يسكنون في بيوت العمال ، وزاملت طلابا مسلمين ومسيحيين ويهودا ومن ملل أخرى دون أن تعي الفروق . . وعلى مائدة بيتها تجتمع سماسرة الأخشاب بلغات غريبة ورجال من أصقاع بعيدة ، وكبرت وتعلمت بينهم أن شجر الأبنوس والتيك في تلك الغابات تسمى أشجارها بشرا لا يموتون .

صحبتني مريم وثلاث من زميلاتها في جولة إلى المدينة بعد انتهاء العشاء ، وكان لا بد من تجربة الإنكليزي ([illegible]) ، حيث جماعة عشاق تهيم أغنيتها لم ينتظر الأوسع . . واستغل قطارا مستقرا بمسالك جبل والشطآن الداخلة .

يشوق زائر شبرح حين يتوقف القطار عند القمة، ويدرك لماذا خرّ السكان الأصليون سجودا لقدرة الخالق يوم تكشفت عيونهم لا رأوه أول مرة، فتلك الصروح المتشعبة، تشهد للكائن الأجمل في طبيعتهم البكر المتسكنة، فتنتهم للأرض التي احتضنتهم، ومن ثم قرنها استمدوا وسائلهم المنشرة، من الروح والإنسان والحجر، ومن ماء وسماء وخضرة لا متناهية أبسط أنواعها ثلاثة.. مونوليتها Monomegalithes والبلمانيي [illegible] وأرضها [illegible] استطرت أن تلتقي وتتحد في نقطة واحدة.

حتّى السوطكون طبيعة طارد قلقاوستهم، ومدت عمولهم بأنّ فتكت بهم، وحين غمضوا بأسهم عليها بدأت تستعيد ألقها، وتُجدد شبابها في غرابة الأمطار وحسب ترابها.. خضرة تقاوم النسيم البناء والبلسم خَشْرَمْ والظل لمنر واحتضن لمشي للاه متحضرة كثيفة.

وحده جبل والشخص كل شامخا متحديا، وشاهدا على روعة الخالق.. وقف انحناء الشهيد ماثلا ضد التحالف.. فقط سمح لخط القطار الضيق أن يخترق ثناياه، ليشهد كل من يستقله على ما كان يوما حدثا أسرا، فربما لا يحيه سكانها أمر.

ما زالت تلك الإطلالة ساحرة، منظر سجدت له السائل السكان الأولين، أنفاسهم ما رأوه تتوسلت نظراتهم إلى آلهة تستطيع خلق هذا الجمال، تظهرها في الطبيعة وقوتها، الأرض والماء والريح العاتية. سكّولها حين أصبح أو نهشا، ثم جاء الفرنسيون على قوارب أحمال طمعهم وكتائب على حسنها من عالم جديد. هو الجمال البكر الذي

عمّرها القادمون حين أنهكوا أرضها ولوثوها برغبة الاستهلاك والثروة والاغتصاب وهم لا يرتوون ، ورأوا في حسرة تراب فتته الأولون حديثا ، وفي لحظة ما . فالهنود الحمر انبثاق النور من طبيعة متقلبة مجرد فولاذ وصناعة وثروة ، مصانع الفحم والتعدين - ، هزمت وللنسور قصائد تقص حسرة الأرض وتغني بانسحاق شعرها .

لم يجن الباحثون عن الثروة سوى الكآبة وجلال الصمت ، تركوا مدينة بتسبرغ لم يجعلوها فاضلة بشهواتهم ، فلوثوها بإفرازاتهم ، القتامة والموت .

ويوم زرتها كانت تغتسل من خطاياها ، تتطهر من ماضيها بعودة صادقة .

لم تعد بتسبرغ مدينة الفحم والسواد ، بل غابة تكافح لتستعيد ألقها وبهاءها بعد حملة وطنية أمريكية بدأت عام ١٩٧٢ ، أخرجوا مصانعها ، وحموا أنهارها وكافحوا تلوثها .

وبتسبرغ مدينة المتناقضات ، وإن ظل شعارها التميز والتفرد في كل ما تقدم أو تقول أو تفعل ، صلابة ، شهية وراقصة تحتمي بالثلج ، كما أنها معقل العلم والمعرفة ، فيها ٢٩ جامعة وكلية ، وتشكل متحفا كبيرا يملك الرقم القياسي في تنوعه وتساميه ، وعلى أرضها أقيمت أكبر حديقة للطيور يسبح فيها أغرب الأنواع وأندرها ، ونالت جائزة المدينة الأكثر حيوية في أمريكا مرات عديدة ، ومنحتها الطبيعة هبة لا مثيل لها ، التقت أنهارها الثلاثة عند نقطة واحدة ، فائتلفوا

عليها تنورة كبيرة يتلفع طرزها بلونه الوردي متراقصاً لنسمات الأشجار ، فلا تحجبها حزن من كل الاتجاهات ، ومن مسافات بعيدة .

بجرافات وحفارات وآلات تنقيب ، وبشهوة الامتلاك والثروة بعناد مالسة بتسرع ، استباح المستوطنون القادمون إلى العالم الجديد هدوء الطبيعة ، داسوا جمالاً وهدوءاً لم يسمع مثل وَجْد سوى غناء العصافير ، ينام ويصحو على انسياب الجداول والأنهار وصلوات السكان الأصليين . شحنت القافلة بهشيم الآنهم .. واقتلعوا حجارة الجبال وقهروا تضاريسها ، ونبشوا ترابها بحثاً عن ثروة لا تنضب ، فهجرت الطيور أوكار الأزل أسراباً ، جزعة ، ورافقت قطعان البايسون البري رمز القوة عند السكان الأصليين ، وانقرضت حيوانات نادرة استوطنت غاباتها قبل البشر ، وما تبقّى أسيرٌ في محابس .

رحلة مأساوية عاشها السكان الأصليون كحيوانات أرغمهم طريق الدموع درب الدموع والظلم سوق ليه من تهامى من قبائلهم إلى محميات خاصة ، كانوا يبكون وطناً سلب ، وحياة تُمَلَّكت بالقتال ، وأرضاً انتُزعت منهم وملكوها قبل أن يدري بها أحد ، يجرّون الأسهم في طريق القتل والقهر :

أنظرُ عاقلي إلى الطريق الطويل
وقلبي يُثقِلُ بأحزان شعبي
أبكي دموعَ حزني
على كلّ ما فقدنا

إذ انتُزعَ من أرضٍ وُلدنا فيها
إلى طريقِ الدموع

**

أرتّبُ ضعفَنا وسقوطَنا
على دربٍ مثلَ الأكفان
الدموعُ في عينيَّ . .
واحتضنُ امرأتي
تلتقطُ روحَها في ذراعيَّ
على طريقِ الدموع

**

أشيائي تلاشتْ وأيامُ عمري
يتقلّصُ شعبي مع بزوغِ كلِّ شمس
أمراضٌ فتاكةٌ وجوعٌ
ووهمُ الصفقةِ أسوأُ
على طريقِ الدموع .

**

تذكرني القصيدة الأشهر في حياة الهنود الحمر «طريق الدموع» بذاك الطريق حالاً في مدينة القدس القديمة ، حيث حمل الناصري على صليبه بلا إثم ، يجرُّ بجرحه وحاله إلى جبل الجلجلة ليصلب . ويُسحب المواطنون الأصليون متشبثين مثله بقهر قلب ، إلا أنهم ولغوا

على أرض لم يطأها أحد قبلهم، ولم يعترف بوجودها غيرهم، وربّ خلقها.

صرخ عيسى بن مريم إلى ربه (إلهي إلهي لماذا شبقتني، إلهي إلهي لماذا تركتني)، واقتنع الهنود الحمر أن "الروح العظيمة" لم تسمع صراخ استغاثتهم ونحيبهم، فرموا إليها طبولهم حول النار المقدسة، ولكن حارسة قبائلهم وأرضهم تخلت عنهم وتركتهم يساقون بالآلاف وتنهار وتموت في محنة طريق الدموع.

لم يهتم الفاتحون الأوروبيون إلا بسلطاتها رغم تسابقهم على ثروات العالم للكشف عن كنوز الطبيعة.. وإحساسهم المتعطش للثروة وهمهم الشاغل من يجتاح كل بقعة خلقه في سكون.. دمروا سلامه واستباحوا غاباته وجلال سكونه الأزلي.. وأطلقوا بلدوزراتهم في وجه كل شيء، حفروا الأرض والماء، ودكوا سحابه وهدير البركان، وأزالوا أنهارا ظلت تجري منذ كان البدء.. تحضن أسماكها وحكاياتها في سلام تستظل بسماحة الله.. وتتقلب بين هدوء وعنف لتصل البحيرات الكبرى وخليج المكسيك.

غطت سماءه بنسيج غيوم المصانع وسوادها، وأطلت مدينة متكرشة بالنفط.

وبتسبرغ واحدة من أكبر مدن ولاية بنسلفانيا وتتصل بنيويورك.. هي مدينة للفن والاستعراض والجامعات والطائرات والفرق الرياضية والثروة.

وامتزج الجنسيات وتشعب الأصول والأعراق ، منهم من كل بقاع الأرض قاطن مقيم ، سكانها خليط من أمريكيين والمانية وجاليات تكثر أو تصغر ، من البلاد العربية وإيران وباكستان والبرازيل وبريطانيا وبلغاريا ومنغوليا والصين وفرنسا وألمانيا واليونان والهند وأيرلندا وإيطاليا واليابان واليهود وكوريا والمكسيك .

لا أحد يسأل عن الجذور في مدينة الاختلاف والقبول والتعايش أو يحيرها انقسامها ، وكل ما يأتي من الأعراق المهاجرة صور لسلالات علقتها الأحفاد في لوحات وإطارات ، بهتت واستطالت بالزمن .. صور لسلف الأجداد وهي ترسو على شواطئ حادثة عاتية ، وتهتز وتترنح بأحلام القادمين ، أو كتب تروي تاريخا وذكريات عن رحلة الأسلاف ومعاناتهم في البحر والأرض ، وعن صراعهم أو علاقتهم مع السكان الأصليين ، وعن بطولة وصمود وانتصار على قسوة الطبيعة وعواملها ومشقاتها .. ولم تشر تلك الكتب القديمة إلى أنهم جاءوا إلى تلك الأرض بالمراسي لم تعرفها قبلهم .. فتلك الطائفتين والمبتعثين بالآلاف من سكان الأرض ، فلم تكن أجسادهم قد ربت الشاحنة الطبيعية ، وأرضهم غنية مثل أجسادهم لم تعرف العدوى أو توقد الجرائم ، حتى استطاع تجاوز الساحل كنزا بشر خطوا عليها ، فلم تعد مستعمرة الدم الإنسي .. كانت القارة أوسع وأكبر من آلاف لم يتجاوزوا العشرين من استيطانها .. فهناك الخلاء الشاسع من القارات القديمة بالسكان الأصليين ، وربما حاملة من قارات كثرت ساحاتها بالمتعدد .

لا يحتاج المرء في بتسبرغ سببا ليجمع الناس إذا ما رغب بالاستعراض، كل مستعد للحظة لهو عابرة.. يكفيه أن يبدأ بإطلاق ألعاب نارية تثير المدينة وراءه عاطفة، أو يبدأ عزفا منفردا على آلة موسيقية أو مع فرقة، ليتحلق أهل بتسبرغ حوله راقصين، يصفقون ويغنون، ويمضون حتى اللحظة لحظة عابرة لا تحتاج مبررا لارتكابها.

تتوقف مع مسرح ومليشياتها السلام «بيث تيكفا» (المعبد أو السيناغوغ) اليهودي، أي بيت الأمل بالعبرية، وهو أكبر مجمع للتوراة والتلموديات ومن يجلس الجالس من الجمهور، ويشترك في حفلاته المناسبة الأعضاء وأصدقاؤهم وعائلاتهم.. لا حرج ولا رفض في مدينة لا تقتحم خصوصية أحد ما دام يحترم القانون.

كل شيء على المكشوف في مدينة تمتد على أكبر مساحة طبيعي حضرته طبيعة جامحة في عصور التكوين. ولمدينة سمحت الطبيعة لأنهارها الثلاثة أن تتحد في واحد، لتسايل الأنهار من ذوبان الثلج بعد عصر الجليد، تجري وتلتقي وتكمل مشوارها وتختفي في البحيرات العظمى، أو ساحي فُتّر التاريخ الأمريكي يوم حملت صفحات أشرعة المكتشفين، يبحثون عن عالم مجهول آخر فوجدوه في أرضا جنوبية.. تقاسموا بلادا بخلفية ثرواتها تفيض عن نهم كل الطامعين، وستكون أكبر حصة تصب في عروق ثروات مسروقة شاهقة، وتغيب بطول الاستغلال.

أطلُّ من قمة جبل واشنطن على المنظر الساحر، أترقب بالمناظر

جبالا وسهولا وبيوت غنى وجاه ، تزحف وتختفي بين خضرة كثيفة ، وتحوّل جمالا غير عادي إلى ملحمة إنسانية حقيقية .

تظهر الأنهار الثلاثة فوق الصفحة وقد استعادت صفاءها ، وأرض بتسبرغ حمراء قانية بالخشب ، مصلوب مدينة الحديد والصلب ، جسورها من معدنه ، وبناياتها الرمز لجسد العرفان لصنع الثروة ( مبنى الفولاذ الأسود) ( [illegible] ) .

لم يكن هم مستغلي المال والمتسلطين على كنوز الأرض الاهتمام بطبيعة لم تسمح إلا حيازات سكانها ، ولم يجعلها سوى سجونهم فوقها وليها ، فتحوا المجاري إلى صحة الله بمخلفات كل شيء ، البشر والمصانع .. وغطت السماء سحب السواد جففا على ميزات أشجارها ، وحين طغى البشر أكثر ، لقد صبر الأرض ، وبدت الأنهار القاطعة حداوتهم ، تتكئ بأسماكها ، وانتشرت بكتيريا لا ترحم أجبرت الناس على البقاء في بيوتهم مع مغيب كل شمس . وأصبحت بتسبرغ مدينة الظلمات .

كنت مشاركة في مؤتمر أدبي في جامعة شاتام في بتسبرغ صيف ٢٠٠٨ . وكلما ذكرت هنا أمام أمريكي أبدى شفقة على مستقبلي ، ويشيرون بلا تفاصيل إلى الماضي ! وتحدثت صاحبة السكن التي ليوا حيث أقيم ضمن برنامج الكاتب المقيم على ضرورة أن آكل الأسماك ثلثا ، ولا أشرب إلا ماء معقما .

تحولت مدينة بطلها سواد الفحم ، يسرق زرقة أنهارها ، ويحمو

خضرة غاباتها ، ووسواقيها كلية .

وحين تجولت فيها ، التصقت أكثر بأثر الفكرة الأولى على الفكر البشري ، فحين يطال الاتهام شخصاً أو قضية ، وتُنشر في صحيفة أو وسيلة إعلامية أو تصبح قضية رأي عام ، ثم تثبت براءة الشخص ونفيا الاتهام وبطلان ما قيل ، تبقى التهمة راسخة ، وقلما يعتني أحد بنشرها .. هي رغبة الناس في القصص والفضائح غير عادية ، وقليلون تحمسوا بتغيير رأي كان لهم ، عن صفحة جميلة نابت والطهر .

تلك بيتسبرغ عام ١٧٥٨ ، وازدهارها في عصر الصناعة ، وحافلها إقفالها في عام ١٩٧٢ .

تسحبني مريم عبد الشام مع صديقاتها إلى الإنكلاين ، يشرف القطار على القمة ، تطل على بانوراما المدينة .. جبالها وأنهارها الثلاثة وجسورها ومنتزهاتها والنافورة الوردية الضخمة

تمشي مريم بتؤدة لتجرب القهوة في مقهى وسط المدينة .. وتبدو عاملة متعبة ومرهقة ، مشولة القوام كغزال إفريقي هارب في ترجس مما حوله .. وكل ما حولنا يُذكّر ببعض الأفلام الأمريكية القديمة ، حين يطبع رجال الكاوبوي آثارها بأرجلهم ، ثم يطلون شاهرين مسدساتهم من بيوت وساحات تشبهها ، شوارع ومحلات وأزقة تنم عن أن كل شيء هنا مستقر كأحلام المهاجرين ، وقابل أن يتوحش ويمتد .

تسرع مريم الجميلة ، من حيرتها في أن تبقى ثقتها في صفحة

الحرية ، أو تصبح كصديقاتها البلهاء ، أن تقبل قبلات لاهثة ومستمتع غريب تتمرد على تعاليم تربت عليها وصحبتها معها .

تظل هي بين سمو وانطلاق نزقة ، يهيمن عليها خوفها منه أن تترك قلبها الشابي يميل لأحد ، لعفافه دون أن يبلى كثيرا ما يسعى لخطفه ، وتعصم أنثيتها من عبث الإعجاب ، وترد بلطف أو عنف دعوات الزملاء ، وتخشى صديقاتها ، فهي تخشى من علاقة قبل الزواج تغضب الله ، مهيمن بالرحمة ، شديد العقاب ، ويعلم ما في الصدور .

يَمضي والدها ساعات يقرأ لها آيات من كتاب الله ومختار الكتب للمتطلعين وأصحاب الفتوى ، ليعيد خطوة لها - ربما - تنحرف عن خط رسمه الإله يحبها ، ويخشى عليها من نار جهنم وبئس المصير .

شابة جميلة وحائرة بين أن تقتنع بأن حريتها أمر شخصي محض ، فتقبل قبلات غريبة وتتمرد على امتلاك والدها لأمرها ، أو تظل كالمحبوسة وسط أمريكا ، تنتظر أيام عودتها إلى حضن أمها وحنانها ، لم ترتبط بشاب من بلدها وتقاليدها لن يقبل بأنس لها .

تخيف مريم فكرة الحب والزواج .. تخشى أن تعشق في تسرع فيُرتَّب لها زواج في بلدها ، وتقلقها فكرة التفاضل في أي منهما .. تطفئ حرارة مشاعرها قبل أن تنمو ، ولم تسمح لقلبها الفتي أن يتجاوز الإعجاب . تكلمه من حب وعلاقة أمريكية قد تبيح مطالبها ، أو تضع فيها جسدها لا يتيمها إلا غيره .. فترد عيون المعجبين وتقفل قلبها دون عشاقه لئلا تغضب .. ومريم لا تخفي انعطافاتها حول الحب

والعلاقة العاطفية ، بين تقاليد صنعتها من الوسط القروي من القارة السمراء ، وبين مجتمع حر لا يقيم وزنا لكل ما يكبل انطلاقتها ورغبتها في الانعتاق من عرقها .. من الله والأب والكاميرون .

لحتي "الكاميرونية" بلاد الصبايا الكريمة .. وهي الماضي والمستقبل الصبية تبحث عن التميز ، بنظر والدها الغالي لتولها المزين به تاريخ النساء في حافلة الشوق ، بالعلم والمنصب الحكومي الرفيع .. يطرحها بإحساسه لعل في ابنتها ما يطمعه . أب خالف مسار حياتها تطويرا يوما ، يضخ في عقلها ما يسمعه من النصائح الثمينة ، يحثها أن تتفوق وتحلق شرنقتها على تقاليد تربت عليها ، وتعلمها يستهويها من تأهيل الفصحة والوصايا .. فتحتار أكثر ، وتنبهر تحت صديقاتها الأمريكيات ، وصحبة يقتنين ملابسهن ، وموضات وصيحات في الحياة والعلم ، منطلقات يخترقن الوفاء ، ويفعلن ما يُؤمنّ به بلا رقابة ، ويرقصن عبر الأيام في حياتهن عند حدود ما تُفتقر حرية شخصية .

تصارع سوء تناقض المتقابلين بينما تعيش مرحلة تشكل الوعي واكتمال العلم في نضوج .

سبع من شرك يلازمني عاصمة الكاميرون ، جمعها تاجر من قبيلة زنجية عريقة من مدينة دوالا أكبر مدن الكاميرون ، انتقل إلى العاصمة حين مرت على عادات قبيلته ، وتزوج امرأة غريبة من إثيوبيا ، بهره جمالها ودقة ملامحها وطولها الفارع .. وجعلها ليتنقل بها بين أهله ، ثم خرج في الصباح بحديقة الموت بعد يكابدها .. أنهكت القبيلة

طبولها يوما كاملا ، ظهروا عشية لفتة غريبة تهامست القريبات عن احتمال فقدانها ، في مآتم وحفلات وطبول وبلاد بعيدة تركت فيها أسرارها .

وما زال العرف الكاميروني في قرع الطبول صباح ليلة الدخلة سائدا . ولأن الرجل الكاميروني يقبل الزواج أحيانا بامرأة فقدت بكارتها ، فمهرها أقل ، تُقرع الطبول للمتزوجات أكثر وأعلى ، وكلما زادت الشكوك حول ليلة تُقرع طبولها أطول ، ثم تُعرض مناديل تؤكد بقعة بكارتها على الملأ ، وتُعلن براءتها رسميا .

وتعرف مريم أنهم سيقرعون الطبول أياما لعفتها ، فهي شابة ، مسلمة ، تدرس وعاشت وحدها في أمريكا ، وستحتاج إثبات براءة وطبول أعلى وأطول سمعا ، ولن يحميها أنها في أعلى السلم الاجتماعي ، أو مكانة عائلتها القبلية .

انتقلت ملامح جدة مريم الدقيقة إلى أولادها ، وحققت غرض زوجها في تحسين نسله . . وحين تزوج أبناؤه من قريبات أمهم اختلطت ملامح القبيلة الأصل ، واتسم الجيل الثالث بجمال عجيب .

جد مريم تاجر أخشاب يملك عشرات الآلاف من الأفدنة والعاملين فيها ، وهو يرفض احتجاج رجال البيئة إذ يعتدي على عمر وضخامة أشجار غاباته ، يحولها خشبا يزيد ثراءه ، وحجته ، للحكومة والناس ، أنه ينفع البلاد ويُشغل عمالها ، فهو لا يقطع شجرة قبل أن يزرع أخرى ، ويكفي أنه يعيد إلى البيئة توازنها .

يشكل المسلمون في الكاميرون ٥٥٪ بينما المسيحيون ٣٥٪ وباقي الديانات ١٠٪ فقط .

والد مريم محام وأمها معلمة لم تصل بشهاداتها الثانوية ، أكمل منحة الاتجه للدراسة في أمريكا وتم نقله من مجتمع غريب يمقع إليه ابنته .

التقيت مريم في جامعة شيكاغو حين شاركت في مؤتمر أدبي مع عشرة من كتاب أمريكا ، منهم روبرت هاس الشاعر والباحث والأكاديمي المرموق ، وكاتب من إسرائيل هو بيتر كول المعروف بدفاعه عن الفلسطينيين ، وهو متزوج من فنانة وكاتبة فلسطينية من عرب إسرائيل .

بعد حلقة نقاش عن الخوف في الأدب ، وهل يشكل عائقاً لحرية التعبير ، جلست إلى مريم فيها بره وإلهام وانطلاق .

نحيلة وعيناها محيط من الحيرة والتساؤل .

قالت إنها توافق على أننا في المجتمعات الشرقية والإسلامية نعيش خوفاً مستمراً   من الله والمستقبل والمؤسسات الدينية ، ومن

الرتيب والسلطة الأبوية والاجتماعية .

وأرصفة السفر المكتظة إضافة بالبشر لا تلائم ، ومفارق الطرق متشعبة تعلن فيها أسرارا مشتعلة ، وتعددت طرقات بمصمصة ترمقني وأنهت على دروب الفراق .

كنت قد أفلت من خوفي وأنا مستترة ، من كابوس لم يفارقني حتى توقفت عائلتي عن قضاء الصيف في كرم صغير على مشارف جبل الكبير ومستوطنة رفات وأسيل قرب بيت لحم ، يهاجمني غرباء الدعاء لا أستطيع تبين ملامحهم بينما يحاولون اقتحامه ، وأعجز في محاولاتي البائسة وهرعي عن سد الباب في وجوههم فيطوقوني . وأصحو صارخة أو مختنقة .

وكانت تلك ردا على سؤال حول أثر الخوف في ما نكتب

كنا على المنصة ، الكاتبات الأمريكيات ، الشاعرة نعومي شهاب ناي الأمريكية المولد ، والدها مهاجر من فلسطين ، صحفي ، وأمها أمريكية ، وهي أستاذة جامعية ، وحسب تعبيري تلك الأعضاء الصحيح والقلب الكبير لفلسطين - قولا وشعرا وموقفا ، والشاعرة المعروفة كارولين والكين ، أمريكية إيرلندية وأستاذة جامعية ، وأناهيتا فيروز ، روائية وأستاذة جامعية من أصل إيراني ، والشاعرة البرازيلية أستريد كابرال .

كانت حلقة النقاش عن «الخوف في الأدب» .

والذي يصدر الخوف لا موضوع لمن ولد وعاش في الغرب ، بلاد

بالحرية السياسية والمدنية والتأمين الصحي والاجتماعي وفرص التعليم والعمل ، بلاد لا تعرف القبيلة والعشيرة ، ولا يهيمن عليها الفكر الأبوي المتعصب .. ولكنني دهشت حين لم تشر كلونيا إلى أي خوف من التمييز مع البيض ، قالت إنها لم تجرب الخوف ، وإن فرص التعليم والنجاح والعمل المتاحة أمام اجتهادها فتح لها جميع الأبواب ، كانت أمريكا تواجه محكا لمصداقيتها بعدم التمييز باللون والعرق ، في حملة شهدت المنافسة الواسعة حول مرشح الحزب الديمقراطي للرئاسة باراك أوباما .. فهل أسهمت كلونيا والملايين يومها في فوز أوباما الصحيح للترشح الوحيد للحزب ، فغادرت ما تعلق بالذاكرة من الماضي القريب؟ .. لا أعرف .

لما سمعت شهاب قالت إنها حين زارت أهلها في القدس ، لم تخف ، بل كانت خائفة ، وهذا هو شعور كل الفلسطينيين عادة .. مجرد التفتيش لا الملاحقة .

تلك إذن الزميلات ، محظوظات هن ، لقد ولدن وعشن وكبرن في مجتمعات لا تعرف الرقابة ، وتحترم حرية التعبير حيث لا سقف لها

أما أنا فعشت في بلاد الرقابة ، الدين والسياسة والمجتمع والعمل ، فكيف أدعي أنني لم أجرب الخوف؟ كيف أدعي أنني لم أصارع الرقيب الداخلي وأحاول تخطيه في كل مرة أمسك بها القلم؟ لأنني أعرف أنني حين أتجاوز كل الخطوط قد لا أجد من ينشر مقالاتي ، أو يذيع برامجي التلفزيونية أو يسمح بروايتي؟

وكثيرة هي مواقف الخوف من عدم إيصال صوتي بالقلم في حياة الكتابة عندي، ثم في العمل الإعلامي والتلفزيوني، حوارية ومهنية، صعدت منذ كنت على مقاعد الدراسة الثانوية وما زالت؟

كيف لا يعرف الخوف من يُمْنَع من العمل لأن له فكرا لا يعجب الرقيب أو الغير؟

أو يُمْنَع عنه جائزة لأن لديه تحفظات على القضاء الشرعي؟ أو يبقى كتابه سنتين بلا توزيع خوفا على وظيفته أثناء حرب الخليج واحتلال الكويت؟

كيف لم يجرب كاتب عربي الخوف من المنع من العمل والسفر وملاحقة الأولاد؟ على جريرة فكره ومواقفه في بلاد تحاسب حتى على النيات؟

الخوف شعور إنساني لا نتنصل منه، ولكننا نقاومه لأنه يكبل الكتابة ويعيق التعبير.

هكذا اقتربت مني مريم.

ومريم خائفة .. من العودة إلى الكامبيوتر، ومن والدها، وربما تسمعه من عذاب الظالمين في نار ذات لهيب يُشْوَوْن فيها.

ووالدها خائف منها .. عليها .. أن يغضب الله ابنته الغريبة أو يَلِجَ في غربتها دون أن يعرف، ولكن ربما يوشك الخبير.

ومريم خائفة الخوف من تنقل صديقة طفولتها ورحلة سماحا، من أهل الفتاة أو غيرهم، ومن عذاب الله وحسابه لأنه وحده يعلم.

صديقة وزميلة مريم كاميرونية مسيحية من أصل لبناني - لم ألتق بها أو أعرف اسمها - تعيش في الطرف الغربي للعاصمة ياوندي مركز الأقليات الدينية الكاميرونية ، وأكبرها المسيحية .

قالت صديقتها لي جـــرح شابا من الكاميرون عاشقته بجنون ، وانتصر غرام بالنص والمقة عشق محرم على القبائل والخوف ، يطأن تلتقيه في الإستراحات الجانبية في الطرف الشرقي من العاصمة ، وحين علمت صديقاتها المسلمات ، القائلات تسري في تقلة من عيون الأهل وولي أمير منطقتهم .. هو حب مرفوض من الأهل ويخشى ، تخشاه عائلة الشاب ، وأهلها وحيدها من هوى مستعر ، فأهل الفتاة عرب مسيحيون متعصبون ، وهم يهود متعصبون .

تصبح مريم صديقتها بتركه حب محكوم بالفشل .

تروح العواطف باتهامها حين تكبر أو تنطفئ ، وتنشد تبريرها وحقوقها فتحرق أعصابها حين يحصدون بعضها من أنفسهم ومن حولهم ، يطاردون غرامهم وأحلامهم فيشتعل لظاها .. فظلت صديقة مريم عشيقها في عاطفة مشبوبة وشوق في حضن من لهب .

ومريم خائفة أن تخسر صديقة العمر أو تفتضح سرها ، فلن تبقى في الكاميرون طيلة سنوات الفضيحة محتملة ، وسيبعثها أهلها إلى لبنان لتستعيد ختم الطهارة بالجراحة ، ثم تتزوج من قريب لا يعرف ما حدث .

هو تعصب الأقليات حتى في مجتمع تزداد فيه نسبة الزنا ، كما

أعلنت إحصائيات حكومية كاليفورنية .

ولا ندري سر أن العمليات القليلة من ترقيع البكارة خلقت شكاً وخوفاً غير مبرر عند بعض الشباب العربي . . وكثيرة هي القصص المضحكة المبكية عن خوف الشباب العرب من عمليات ترقيع البكارة . . أمر أصعبهم على استخراج شهادة طبيب مختص يؤكد فيه أن الختم الطبيعي باقٍ لا جراحي ، ومثله طبيب متعلم أحضر مصباحاً وحاول معرفة إن كانت بكارة عروسه أصلية أم مزيفة ، فصفعته ، وطلبت الطلاق لمن بدأ حياتها بالشك والتوجس ، وأصر آخر على التأكد بالعين المجردة والعروس ما زالت في ثوبها الأبيض ، وحين اطمأن على أن ختم البكارة أصلي توكل على الله وأثبت رجولته في افتضاضها ، وتضايقت العروس من شكه ، فهو في رأيها معذور ، بعد كل ما سمعه وشاهده على فضائيات الإثارة العربية عن عمليات ترقيع البكارة . ثم اختلاف الفتاوى الأزهرية حولها بين رافض للعملية ومؤيد للستر .

أيضاً في القصص ستستشعر سماً من واقع يمزق بين العلم والتقاليد ، يثق بابنته ، ولكنه أسير مجتمع يحاول إعادة البشرية إلى الوراء ، ولقد وسعه إدمانه على الفضائيات المتجهة إلى التعصب والانغلاق ، تكثر برامجها هجومه عن حرية المرأة وانطلاق الغرب ، فيصادف أنه يضعها يستحضر فيها المرأة سلعة مزمنة تستطيع حتى حولها في مجتمع غريب لا يعصمه منه سوى العلم والفضيلة . فوالكم

دينكم ولي دين» .. يحاول أن يحميها من عنف لا يقره في مجتمع لا يوافقه على حريته ، وإن أعجب بتقدمه العلمي والتقني ، ويريد لها أن تستعيد شهادتها الجامعية وتعود إلى الكاثوليك ثانية كما خرجت منها .. ولا يطمئن لشكوكه أو يبوح بمخاوفه أن تقبل تؤكد له ، أنه لا أحد في الغرب يجبر أحدا على ما لا يريد ، وإن ظل الخطر الوحيد على النساء في كل بقعة من الأرض واحدا ، مغتصب أو متحرش .. ويمكن تلافيه بتأمين السكن والتنقل

تتفهم صديقات مريم الأمريكيات وضعها ، إحداهن مراهقة في وقود سيارة الجامعة ، عازفة الطبول صاخبة الجمال ، وأخرى من المورمون لم تطق بكلفة .. ربما احتشمت حشمتها خوفا من أسئلة وسخريات لا ترحم . والمورمون فئة دينية في الولايات المتحدة أنشأها (جوزيف سميث) ادعى أن المسيح ظهر له ، ودله على مكان دُفن فيه لوحان ذهبيان نقشت عليهما تعاليم ديانة مسيحية جديدة ، فلم يبحث عنهما ، ثم جاءه في منام آخر يوحنا المعمدان (النبي يحيى) ، وطالبه بالعثور على اللوحين وأكد له مكانهما ، وحثه على استلامهما من ملاك اسمه مورون يحرسهما ليلا نهارا ليصلا إليه ، ونقشت عليهما تعاليم الديانة الجديدة . ويعتقد المورمون «نسبة إلى الملاك الحارس» أن سميث عثر على اللوحين وترجمهما ، فتجاوز أتباعه في العالم ستة ملايين شخص ، تركزوا في أمريكا وقليل منهم في أوروبا .. ويختلف المورمون والطوائف المسيحية الكبرى حول مفهوم

الثالوث : الأب والابن والروح القدس ، ولهذا لا يعترف بهم الكاثوليك والأرثوذكس والإنجيليون ، بل ويكرهونهم ، ويحسبونهم أقرب إلى اليهودية وتعاليم التوراة . . وربما لهذا حجبت الشابة من أسرتها قد يحرجها ، أو حدث إشكال لا ترغب فيه من طقوس طائفتها ومعتقدهم .

تناول الآيس كريم في ملهى صغير بينما ينهمر المطر الصيفي غزيرا . . هكذا تروي السماء زرعها صيفا وشتاء .

أشرح للشابات أهمية العذرية في ثقافة المجتمعات العربية والإسلامية ، والمشروط بها لدخول إلى جوهرة شرف . . كما كانت تعني الكثير أيضا في مجتمعات الغرب قبل الثورة الصناعية ، وحرب عالمية ثانية حررت نساء أوروبا اقتصاديا واجتماعيا ، وظهرت الحركات النسوية مطالبة بالمساواة في كل شيء بعد أن خرجت النساء اضطرارا إلى العمل أثناء ما خربته الحروب ، ولتعويض غياب الرجال في معاركهم ، وأسهم فصل الدين عن السياسة في إطلاق حرية كاملة للمرأة . ذلك إن الغرب لا الشرف هو مستودع حزام العفة . وإن التدخل الأمريكي وانحياز الغرب ضد القضايا العربية ، ومطالبته بحرية المرأة المسلمة أدى إلى ربط وضعها بالهوية العربية الإسلامية ومزيد من التشدد والردة في قضاياها وحلولها .

سألت أمي إذا كانت المراهقات الغربيات يتحدثن مع أمهاتهن عن حياتها الجنسية قبل الزواج؟

ووالد أبي يملك مزارع هائلة ، وهو أحد أكبر منتجي الخضرة في أمريكا .

فتاة جميلة آسرة بأنوثتها ، مُباشرة تعرف ما تريد ، وشخصية قيادية لها تأثيرها الواضح على صديقاتها .

قالت حين يعلم الأهل أن لابنتهم بوي فرند صديقا ، يصبح الموضوع مسكوتا عنه حتى مع الأمهات ، وهم يقدرون أن هذا الأمر قد حدث ، أو ربما في طريقه إلى الحدوث ، ولكن لا أحد يشير إليه ، تجربة الفتاة الشخصية بعد الثامنة عشرة يكفلها القانون ومنها علاقاتها العاطفية ، وقد تشتكي أهلها للسلطات وتطلب سجنهما إن حاولا إرغامها على شيء لم يعد من حقهم .

وما يضحك من هو مثلها أن المقاومة تنعت بالتفرد والتمايز عن المسموح والسائد في الفكر الاجتماعي ، خاصة حين يصبح الاختلاف في نظر الآخر تخلفا ورجعية .

وتؤكد لها والدتها كل يوم أن المرأة تساوي العاطفة . هكذا يقول علماء الاجتماعيات وعلماء النفس ، فهي تجذب الرجل وتغريه بتصرفاتها وملابسها .. وعليها كفتاة مسلمة أن لا تتحمل نزق رجل يقابلها في الطريق شهوتها ، تحتشم في ملابسها حتى في بلاد الأمريكان لتمنع ضعف رجل تغلبه شهوته فيقع في الحرام بسببها .

وحين تحب الملابس الجميلة ، وتخاف من إغواء نفسها وعقاب الله ، وتحتار .

ولم تكن تعرف مريم أن الدين حض الرجال على غض البصر . لكن «غضّ» البصر، كما فهمته ، بالإنجليزية التجاهل والعمى فيها .

كان جرحها عميقا على إثر تَحَرُّش أمامها ، يكسر القلب والرفض وجهها الجميل وهي تستعيد إهانة لم تستطع ردها . وجرحها الكرامة والأنوثة في واقعة تعرضت لها في أكبر مجمع تجاري في بلومنتون . لتعود تتعصب للعودة إلى الكاميرون خوفا من تعصب وسلفية اجتاحا مجتمعها منذ سنوات ، وبعد أن ظل مجتمعها قابلا التعددية نشأت عليها .

تزايد المتسوقون في أسواق ياوندي وشوارعها قبل مواسم الأعياد والإجازات الجامعية ، دست مريم نقودها في حقيبة صغيرة وهي تراقب صديقاتها إلى السوق ، فقد كثرت في زحمة الأعياد يد وصول بخفة عجيبة لرقة الجيوب ، وتقطع أصابع تتزين بالحلي ، وتخطف صدرا أو عنقا أنثويا من عليه سلسلة ، ثم تختفي في تدافع المتسوقين وسرعة خطوها .

دست مريم يدها وسحبت نقودها . . أشاح البائع بوجهه وتعوذ من الشيطان الرجيم مستغفرا ربه مرات ، ثم رفض لمس نقودها حتى لا تفسد طهارته ، وطالبها أن تضع النقود أخرى أو ترجع ما اشترته ، فلن يلمس نقودا لامست جسد امرأة غريبة ، فهو إن فعل فكأنما يلمس المرأة ذاتها ، وهذا خطيئة وحرام .

وقفت مريم صوتها محتجة ، فنظر الشاب عاتبا على امرأة تتجاوز حدودها عند حديثه ، وترفع صوتها العبرة على قوانينه ، وأقسم أنه لن يلمس نقودا سحبتها من مسلم بكشوف صدق فيه بعدها أمام الناس .. وكان المشترون ينظرون خلف العاملين .

تبكي مريم بالقهر والإهانة والمشترون تشاهدها ، وأقسم أنها كانت تلبس قميصا بأكمام طويلة تعثر عليه في أمريكا ، وتصاحبت صديقاتها ، حضر مدير المحل ، تناقش مع موظف الصندوق في الحرام والحلال ، حتمه بالطرد فترك المحاسب مكانه بلا تردد ، فالجنة خير وأبقى من الدنيا الفانية ، ولن يلمسه الفضل حين يُصلى بنار جهنم ويُخلد فيها .

انتصار الخير

جلس مكانه وحاسب مريم على ما اشترت ، والزبائن تراقب بين مؤيد أو رافض .. وخرجت بجرحها تغطي وجهها .

سألتها : لماذا لم تلق بما انتقته في وجهه وتخرج؟

فاجأ تجربتها المصيرة ما نسيته في إحراجها ، وهي لم تعتد بعد ما يجب أن يرفض أحدهم مصافحة امرأة أكثر منه علما ومعرفة ، وربما خلقا ، لأنها له مجرد أنثى .

مريم لا تستطيع البقاء والعمل في أمريكا ، سيحطم قلب والدها ، وقد يؤثر على مستقبل شقيقاتها ، ولا بد لها من زواج كلاسيكي بحسب عقلية صدمت في الغرب وتلوثت انحلاله ، وستلوح الطبول طويلا

بعد ليلة زواجها الأولى للعلم ما تعلق بعذريتها .

تذكرت صورة مريم بعد أسبوع من لقائنا ونحن نشارك في ندوة أدبية في نادي الجالية السودانية في مدينة أيوا ، مدينة الثقافة الأمريكية ، أقيمت لتكريم الشاعر الروائي الدكتور طارق الطيب ، السوداني النمساوي ، والروائية المصرية أمينة زيدان ، وشاعرة سودانية أمريكية وأنا .

قلت ردا على سؤال من أثر الثقافات الغربية إنها ضعفت الإحساس الإثني والتقاليد والموروث الثقافي بين المهاجرين . وإن الفتيات يعانين الانقسام بشكل أكثر وضوحا في مجتمعات يحتكرها الآباء المهاجرون ، ويتجاذبهن الاختلاف الشديد بين ثقافة بيت وأسرة تستعيد جذورها وقيمها ، ومجتمع ومدرسة ينظران بريبة إلى أفكار المهاجرين حول مفهوم حرية المرأة وحقوقها . والمشكلة أن يختار الآباء الهجرة إلى مجتمعات يرفضون ثقافتها ، ثم يفرضون على البنات العيش في محميات ، سياجها عقول وتقاليد وفكر أوطان هاجروا منها لأسباب مختلفة . ويشتد الانقسام والضغوط على بعضهن ، بين تعاليم تحثها وأهلها على التطرف وتصليها بالعذاب والنار ، وبين سخرية الزملاء في المدارس والجامعات ، والاتهام بعقل متعصب يصون المرأة ويتزوج أربعة ويضطهد الحريم .

هذا التمزق بين الآباء والأبناء أدى إلى ١٦٥ جريمة شرف في بريطانيا بين مسلمي باكستان وبنغلاديش كشفها في عام ٢٠٠٦ .

حتى أسمعهم محتجا بأنه حان لسماع الشعر والأدب ، وأن ما أقوله مثله أدب، ويجب أن أعتذر عنه .

ردت الدكتورة متسائلة بأن التفكير السلفي تشكل حساباتهم في الأوطان ، وهو ما لاحظتهم حتى في أمريكا ، وقد كثر من جاؤوا إلى بلاد فالكثيرون للمحافظة على الهوية الإسلامية وثقافتها ، وتعزيز الإيمان وضمان عدم تأثره بالفكر الغربي ، وكان هذا المعتقد كما قيل لي .

اعتقد المهاجرون وأسكنوا للتفاعل ، فهم يعرفون أن التحول الثقافي لأية ديانة أو مسلمات أو موروث ثقافي واجتماعي يتطلب الكثير من الجهد في مجتمعات الاغتراب وبين الأقليات .

لهذا يعيش المهاجرون في تجمعات يحشرون بها . وكل غريب للغريب نسيب . ليس المسلمون وحدهم بل من كل عرق ودين .

سوم الكاميرونية هي أول ما يقفز إلى الخاطر كلما تذكرت غريبا مهاجرا وأولاده . أو جاء الحديث حول انفصال ثقافة الشرق والغرب في نظرته إلى النساء . وأنهما ثائرتان على الحواجز العنصرية الثقافية والدينية بينهما .

•••

# قالت ربى وسكت الرجال

كانت الحرب الأهلية ، التي استمرت ستة عشر عاما واستباحت كل شيء ، ما تزال تعصر لبنان ولم تكشف الوساطة العربية لوقف جنونها ، والقوات السورية قد دخلت لبنان بقرار عربي ، وأحكمت حصار العماد ميشال عون في اليرزة وبعبدا من المنطقة الشرقية ، بينما يسيطر ويحكم التحالف السوري مع الحكومة اللبنانية المنطقة الغربية ، وما زالت أشباح من قُبروا في مخيمي صبرا وشاتيلا في بيروت تنادي العدالة السماوية دون أن يلتفت إليها أحد .

كان لبنان يُنحر ويَقتل من اللبنانيين وغيرهم - وأخبار الحرب تتصدر نشرات الأخبار ، وتتدفق من وكالات الأنباء العالمية المصورة .

تسيطر على فكرة أن أصور الحرب وقد بدأت تلوح محاولات جادة لإنهائها .

عرضت الفكرة على مدير تلفزيون قطر حيث أعمل آنذاك ، الإعلامي سعد الرميحي ، فلم يصدق ما قلت ، ولكنني لمست في ترحيبه إعجابا بالفكرة كعمل إعلامي فيه ولمس الخطورة . كان ذلك صيف عام ١٩٨٩ ولم تكن مراسلات محطات الأخبار في مناطق

للعطر قد أصبحن مستعمرة للفضائيات ، تتسابق على بمرأيهن ووجهين . بل لم يكن الفضاء العربي الخاص قد ظهر بعد . كانت الشاشة للتلفزيونات الرسمية ، وبؤرة حولها تشكل الوعي الجمعي لشعوبها ، وسطوة الرقيب تنحي ضروري الأخبار أكثر خطورة من الرقيب الرسمي ، فالأجهزة الأمنية السلطوية ولجان الرقابة تتحكم في كل ما يقال ويبث ، ولا تخلو لجنة مراقبة من شيخ ديني متعصب ، ولم يكن يُسْمَح للبرامج السياسية والدينية أن تبث على الهواء مباشرة ، فأي تجاوز للخطوط سيكلف صاحب البرنامج أو النجم وظيفته أو ما هو أكثر . وظلت أخبار الحكام واجتماعاتهم وتحركاتهم تتصدر نشرات الأخبار وتلتهم معظمها ، وكل ما يخرج به المشاهد لا يتجاوز «بحث الرئيسان القضايا المشتركة بما يهم البلدين الشقيقين» .

أستسلم للقدر حين لم أبالِ ، فسهم من الإصرار والتأكيد بأنه «قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا» ، وقد تنتهي الحرب وتضيع الفرصة .

واجهتنا مشكلة أن يغامر مخرج وفني صوت بالسفر إلى بيروت في خطر الحرب ومع معدة ومقدمة هيبتهما .

وجدت مصور مصري لدى المستخدمات القاهرة مسجونة بتحريم الدخول إلى بيروت ، ولقاء أطراف الشرقية والغربية .

بدأنا رحلتنا من سوريا ، فالطريق إلى لبنان يمر بها ، طريق البحر

وسلمه الجنرال عون للسفير القطري ، على أن نتوجه إلى قبرص ثم ننتقل بالسفينة إلى المنطقة الشرقية ، وهو سيضمن سلامتنا حين نقترب من منطقته . ولكن الرجل مغامر ، وكثيرا ما تُكشف السفن وتعطل حين تجنح في المياه الإقليمية نحو القسم الغربي من بيروت ثم يشتد القصف .

اخترنا الطريق الأسلم

أمنت السفارة القطرية في دمشق لرحلتنا ، أصلحتنا سيارة دبلوماسية وموظف العلاقات العامة والإدارية فيها فايز الكحيمي كمرشد ومرافق ، فهو خبير بطريق شُقّ للجيش السوري هو الأسلم ، كما أنه يعرف مداخل بيروت وشوارعها لأنه دائم التردد على لبنان مع السفير .

طلبت لقاء مدير الإعلام في القطاع العلوي بجريدة البعث السورية .. حملت استمارة عن أهلي وعملي ومكان عملي وأسماء جدودي حتى الرابع .. ثم الخطة المطلوبة ومن يرافقني .

ما البرنامج المطلوب؟

من أريد لقاءهم؟

ولماذا وكيف فكرت في البرنامج وكم مخاطرة؟

طال اللقاء ساعة .. وطلبت منه البقاء أسبوعا في لبنان .

منحونا ثلاثة أيام رغم إلحاحي ، فالأمن لن يتحمل مسؤولية بقائنا في خطر الحرب لستة أيام .. عبرنا الصحراء برا إلى

لبنان حين اكتشفنا أن الهيئة بعثت منذ لحظة انتهاء الاستجواب .

كانت الثانية عصرا .

سبقنا إلى السيارة شاب نحيل يحمل التصاريح ويلقي بتعليماته ، وعرفنا أنه مرافق من وزارة الإعلام السورية .

صرنا أربعة ، فايز من سفارة قطر ، ومصطفى المصور ومرافق الإعلام السوري وأنا .

ويؤكد فايز أن الطريق آمن وسالك غير مخصص للجيش السوري والدبلوماسيين ، وأنه لا خطر علينا إذا وصلنا بيروت قبل الظلام ، المهم أن نتحرك حالا . . ولم يكن ذلك الطريق قد عرف كافة رحلات كبار المسئولين وعائلاتهم وأقاربهم وأصحابهم ، وكل من يحصل على إذنه للتبضع من بيروت أو من دمشق كما حدث بعد اتفاق الطائف ، وحتى خروج القوات السورية من لبنان ٢٠٠٦ .

صدمتنا حقيقة ما جرى رغم كل ما شاهدناه في الأخبار المصورة .

لم نعرف عاليه كانت عروس المصايف ، تطرزت الجدران بالآلاف من ثقوب الرصاص ، ليس فيها سنتيمترا واحدا لم تخرقه الطلقات سرقتها ، مدن وضيعات أضحت أطلالا ينعق فيها البوم ، وكأنها كان يوما قصورا وأسواقا عامرة . . ونصيبنا الدهشة بصمت . . صمت مطبق تنسى ضحكات الصبايا ومرح المسافرين وضجيج السير في السهرات المصيف تحت مظلة الجبال ، لا صوت سوى ترجيع الموت ورهبة المقبرة . . شوارع احتلها صوت الهدوء ويكسره صرير عجلات تلكنا

مدينة لم تكن تعرف سوى الرخام وتبغي الحياة عمرانها حتى طووها ، ومقاه وحوانيت . كانت باذخة اتسعت خلفها بوكاليا ، لا صدى ولا حملة من باكي القتل وعركلات المنعت ، . طرقات خالية إلا من وحدتها ، والظلال تتعانق وتتصور صاح منها القلها ، تبكي عزا مضى ، ورفاهية حيا ، وحفلات لكبار الفنانين العرب .

كان نبض لبنان الساهر صيفاً هنا . . فقتلوه .

توقف عند قصر الشيخ علي آل ثاني لنصور بلْكَنة تطرية علاها القصف والنهب .

حفروا القرميد والبلاط ومواسير المياه والأبواب والنوافذ وأسلاك الكهرباء ، وتركوا الحجارة .

كان مشهدي بجسور القصر من جوانبه ، بهيا شبابك العجب ونحمد الله على سهولة الطريق حتى خلفها . . وفاز ولنا نسترجع ذكريات وأسماء وأحداثاً ارتبطت بمحمدون مزدحمة عرفها كلانا .

وفي لحظة أسرع من انتباهنا ، وكصاعقة مدوية ظهرت محركات سيارات منطلقة ، وصرت عجلاتها بعنف حين توقفت خلفنا .

لم يعرف أحدنا أو ينتبه كيف ومن أين انطلقت سيارات الحرب تصورنا ، سمعت من لا مكان وتوقفت بوادما لفاسا ، ثلاث سيارات وتطوقنا

تلمسنا المفاجأة إذ يقفزون منها . . شبان في ثياب مدنية ، صوبوا رشاشاتهم نحونا وأصابعهم على الزناد .

استقلها القائد الأسمرة الشاملة ، سبقه سائقه وفتح له الباب ، واتشاه لرفقته أو حراسته .

كانوا جميعا شبابا في الثلاثينات أو دونها .

أبلسنا المفاجأة والرعب ، أنزل المصور كاميرته عن كتفه في فزع ، ويرتجف جسده الضخم ويداه ترتعشان . . وأضاع علينا فرصة اللقطة العمر والرشاشات تصوب نحو رؤوسنا .

كانوا عصبة في ثياب مدنية وطاقيتهم ، شاب وسيم ربع القامة أبيض البشرة عملاقاً . . فحصنا والسيارة الدبلوماسية . . ثم سألنا في صرامة ، من نحن وماذا نعمل؟ . .

عقد الخوف ألسنة الرجال في عوالم مواقف لا نعرف نهايتها . . مستمرا وما زالت الرشاشات قرب رؤوسنا .

وطالت الحسم حضور . . كان لا بد من التحرك وإلا قمنا جثثا في مكان مهجور لا يقترب منه إلا مغامر مثلنا .

ولا أعرف حتى لحظتي هذه كيف طاوعتني قدماي وامتلك لساني وأسعفني صوتي .

قلت : إننا من تلفزيون قطر ، ونصور هذا البيت لأنه أثري .

كنا أخط بصراتي في سكوت الآخرين .

تفحصني . ثم طلب ما يؤكد قولي .

عادت الدماء إلى أوصالنا جميعا حين ابتسم وهو يتفحص جواز سفري ، ثم انكشفت ملامحه بود مفاجئ . قال : ولكن هذا مكان

عسكري لا يسمح فيه بالتصوير ، ماذا صورتم؟

أؤكد أننا بالكاد بدأنا بالتقاط الصور للطريق حين وصلنا ، وأن المصور لم يستعمل سوى "الزووم" لمسار النهر وضفته ، ولم يظهر لا جبل ولا واد .

يشهد الآخرون رباطة الجأش .. أخرج موظف الإعلام خطابا إلى الأمن السوري يسمح لنا بالتجول والتصوير عند المواقع العسكرية ، وأوراق سيارة السفارة التي تقلنا .

أشار بصرامة فأنزلوا كاميراتهم .. وطلب بحزم لا يقبل مناقشة أن نغادر ، فالتصوير في منطقة يحظر فيها التصوير والتجول .

التفت إلي قبل أن يدخل الجيب ، نصحني مبتسما ألا نكرر التوقف في أي مكان ، فذلك خطر علينا ، وتمنى لنا التوفيق .

كانوا موزعين وكنا في منطقة ميليشيات جنبلاط ، فالمنطقة ملتقى الأطراف .

وما صمت طويل قبل أن ندخل بيروت ، هو سكوت الرهبة والتفكير بقيمة الحياة بعد النجاة من خطر عظيم ، أو الاقتراب كثيرا من الموت .

كنا جميعا رجالا من مغامرة كانت تودي بنا ونحن لم نبدأ بعد ، وكل يفكر بنفسه وعائلته .

ندخل غربها كان بيروت .

أتذكر سنة عرفتُها .. شرعت إلى فندق البريستول ، ثم الذين

ملامحه حين وصلنا ، خنادق ومتاريس رمل ، وفتحات تشكو هول حروب مجنونة جرحته من بهائه ، وبالفندق ثلث فاترينات تسالي بضاعتها فأُغلقت بأكياس الرمل ، وأثاثه الأنيق اخشوشن واستُبدل بأمر بسيط ، ونزلاؤه لا يتجاوزون عدد الأصابع ، بعض سياسيين وموظفون من الأمم المتحدة وصحفيون ويخدم الفندق وحدهم .

نطلب ما نأكله .

يأتي بعد طول انتظار .. خبز وجبنة وزيتون وكبيس .

سبقنا في الفندق ثلاثة صحفيين أجانب ، منهم نرويجية مختطفة ثم أُطلق سراحها ، فظلت في بيروت تتحدى الموت والأسر ، وكان خطف الصحفيين الأجانب موضة يتعاطاها الفرقاء المتحاربون في الشرقية والغربية .

حدثتني عن خطفها واتهامها بنقل المعلومات لفصائل الغربية ، وكيف تحررت بالصدفة حين قُصف موقع المحتجزين لها فهربت . وعن إصرارها على البقاء في بيروت لتنقل جنون الحرب ، ومأساة المخيمات ، فقد جاءت بداية لأجلها ، ثم شغلتها المأساة الأكبر للحرب الأهلية وصارت تفاصيلها حياتها .

وبعد شهر في بيروت ظل ملازماً لنا لكل تفاصيله حين يبدأ القصف .

وفي بهو الفندق رأيت ما لم أره قبلاً حين حلّ الظلام وجلسنا مع الصحفية النرويجية ، كأننا في حانة صغيرة قاتمة تظلم شعرنا

بطء ، فنفرت نحوها ثم أدركت ما يحدث . . كانت أسراب سوداء من البعوض ترتفع قليلاً من الأرض وتتقدم كغمامة ثم تفرقت بين مقاعدنا وحولها ، لم أحقق منها واحدة منفردة ، كأن الناموس يختشي القصف كالأحياء ، أسراب لا يمكن لي مكافحتها إلا أن نستسلم للسعها حتى تشبع من دمائنا ، فتريح وتستريح .

عرفت سر البعوض حين مررنا صباحاً بسور الجامعة الأمريكية ، رائحة نفاذة وصامتة تخرج من كل صوب كالعفن من الموت الفريص . . كانت أكوام القمامة تصل ملء فراغ وبارتفاع متر على الأقل ، وتتكون الزبالة على سور الجامعة الأمريكية ، من بداية شارع بلس وحتى نهايته ، بلا أكياس أو من يفكر في جمعها .

وشارع الحمراء عامة عرت وانضمت بالقصف والسواد والإغلاق ، وانتحلت عشية أن ترى ما أنت إليه أحد ، كانت المصانع الصغيرة كلها تعمل في أقبية تحت الأرض .

لا أنكر أنني شعرت بالخوف والقصف وسحابة اللهب على متتاطرة اعترتها بطنين للمعلقات ، حين دخلت حجرتي لأنام وظللت مرا طويلا من خوف بلا صوت أو ساكن . . والتفتني لحظل على شارع هجرته الحياة . وساكن ما حولي في هدوء موحش . . فتذكرت أولادي . . وأنا في وسط سفينة يتطاير الموت في أرجائها وستهدف من يتحرك . . ولا فرصة للتراجع .

لم يعد لي سوى الصلاة ومناجاة الله والإيمان بالقدر .

تطفو كأطلال بيروت على كتف مشترك .. ، وتصحو على انفجار شديد قريب في حمام الشط عند صخرة الروشة .

بيروت منقسمة ، غربية مسلمة في قبضة الحكومة اللبنانية ودعم الأمن السوري ، وشرقية مسيحية محاصرة يحكمها الجنرال عون بعد أن نصّب نفسه رئيساً للبنان .

وحدثت بعد زيارتنا للبنان بأشهر ، وقصفها لاجتياح المنطقة الشرقية والقبض على عون ، وانتهى لمزيد من الضحايا والدمار في معركة مأساوية لتأكد خسارته ، تم ترتيب بلجوء العماد مع عائلته إلى السفارة الفرنسية ، وبقي فيها محافظاً على حياته ، ثم نفي إلى باريس ، ولكنه عاد إلى لبنان بعد اغتيال رفيق الحريري ٢٠٠٥ ، ثم تصالح مع سوريا وزارها ليستقبل واحتفي به كبطل عام ٢٠٠٨ .. هي السياسة التي وصفها المثل الشعبي «بأنها بلا دين» أي لا ثبات ولا مسلمات .

تنفصل بيروت الشرقية عن الغربية بسبب القصف .. يلتمع بإشراق الأم المشعة في ساحات «الرواية» ، ثم يطلق القصف للتفاعل من جديد .

وجرد الناس على الصبر بلا تعابير ، حتى وهي تصف لنا معاناتها اليومية وتحكي عن انقسام العائلات الواحدة في شطري بيروت ، ومن

حرب لعلها أنهكتهم وطالت، ومن خوف يسكن أطفالهم من قذيفة لا يدري الناس من أين ولماذا يطلقونها، وبأمل يائس تصديق في اتفاق وساطة عربية أو دولية لإنهاء حرب مجنونة طالت كل شيء، وصوته

على أنقاض بيروت، وفوق دماء ضحايا صبرا وشاتيلا، وما تبقى من ركام مخيمات شهدت إحدى أبشع جرائم القرن العشرين، التقيت ريم..

وتقفز ريم كلما ذكرتُ لبنان.

طفت صورتها على ذكريات كثيرة لي هناك. فهل ما زالت ريم تذكر المقابلة معي حين تكلمت وصمتت فرحلة؟ أم نسيت والقصة الشجاعة تلك؟ كيف تحشرجَ صوتها واقتصرت على ذاتها حين باحت بما تعرف؟ هل أرادت مواجهة نفسها أم الآخرين؟ أن تنتصر على صمت الخوف، وتنفث قصة تُثقل صدرها الصغير وحزنه؟

هل ارتاحت ريم وقد روت ما تعرف أمام كاميرا التلفزيون؟

تقفز تفاصيل المقابلة كلما تذكرت لبنان.

لا يعرف الإنسان حجم طاقاته حتى يواجهها بالتجربة.

ريم فتاة فلسطينية تقف صورتها إلى الصبا، ليس فيها ما يميزها إذ وقفت بين أمها وإخوانها الصغار في بلكونة منزلة من بيت صغير من طابقين عند باب المخيم، كانت مثلهم تراقب حدثا غير عادي في أيام ليس فيها إلا رعب الحرب وظلالها، تجده من يبحث عن اللجنة

ويحاول أن يجيش لتفاصيلها بعد سنوات طويلة ، وما زال صراع الفرقاء يشتد ويتشعب .

تلك هي باحة ترابية أمام بيت ربى ، سرى نبأ وجود فريق إعلامي عربي يحاول تصوير المخيم من أبوابه وزواياه تجمهرت العائلة جميعاً الرجال يتجمهرون ، كنا معاً في ضراوة حرب لم ترحم صغيراً ، فكيف لنا أن نقترب من ركام وأطلال لنقف تحت حقيقة ما جرى؟

هلا جعلت غرق وبؤسها فرأيت ربى . . فتاة أميل للقصر ، ترتدي تنورة زرقاء بكسرات واسعة وقميصاً قطنياً أبيض ، تقف في شرفة متهالكة تساقطت فوقها حالية خشب وقرميد ، مسحت نظراتها في هول ما عبرت ، وأمام البيت الصغير من طابقين باحة ترابية صغيرة تشي بحدود المخيم . . والرجال يتجمعون من الأبواب والأزقة في صمت وتثاقل ، يجرون أقدامهم فيمتص التراب وقع خطاهم ، يتحلقون حولنا كأنما هو مشهد من فيلم جنائزي صامت . . يتابعون جدلاً بيني وضابط الأمن ، هم يصرون على إخراجنا من المكان أمروا علينا ، وأنا أؤكد أنني لن أغادر بيروت ، ولن أتزحزح من مكاني قبل تصوير المخيم ولقاء بعض الناجين . . والرجال يتكاثرون حولنا في تثاقل ، يجرون أقدامهم في شباشب مطاطية ، وبعضهم يرتدي ثياب النوم ، وتخلو وجوههم من تعابير .

لن تفارقني عيونهم أبداً

تسمرت الأعين على نظرات زجاجية لا ترى ، لا دهشة أو استغرابا

أو لجاوبا ، صبوت تستقر القادم في استسلام وحيادية ، على يتجاوز الآتي – مهما نسبه – هول وسواد ليل الفاجعة .

يتوالد رجال من أزقة عتيقة ، ملامحهم كصورهم تجمعت على لا عواطف .. فراغ الإحساس حتى عدم الاكتراث أو الفضول ، وليست على لا مشاعر .

يستدير زحفهم البطيء ، ليشكل دائرة حولنا . القصير عقيلي خرج وانتقلنا مع ضباط الأمن السوري في ملابس مدنية ، والمرافق وفايز وأنا . وعقيلي تشخص الجلبة ثقيل الحركة كثير الكلام عادة ، ولكن الخوف دفعه إلى سرعة غير مختلفة ، وصمت لم يعرف عنه من قبل . يجعل منه الوحش مرهبا لم أعهده فيه .. كثير بعد أن أطلقنا تصورنا من موت محقق مرتين منذ دخلنا لبنان ، في بحمدون . ثم في اليوم التالي قبيل توجهنا إلى لقائهم .. قُصف الطابق العلوي من مستشفى البربير المطل على معبر المتحف .. سقطت قذيفة في المكان نفسه تماما حيث كنا نضع الكاميرا ونجري لقاء مع مدير المستشفى بعد خروجنا من الطابق بدقائق لم تزد على عشرة . فاتصلت إدارة المستشفى تطلب أن نعود لنصور المكتب المُدمّر ومعجزة نجاتنا بفارق دقائق .

أدرك عقيلي أننا في حرب حقيقية لا نزهة ، وأن العمل قد يكلفنا حياتنا .

كانت ربى تحاول النوم في غرفة المنزل الصغير عند باب القسم بينما يتدافع أطفال ونساء يتلففون حولنا . والصمت مريب .. حتى

الصغار يعلن موتهم وأطفالنا حزنها . . وأهيب بهم أن يستذكروا الليلة الفاجعة فإذا هم ( صم بكم لا يفقهون) صــم جســدي لا يلتفت لرجائي بأن ينتصروا لسلم الطفولة فلا يأبهون ، كأنما هم من أهل الكهف جاء من يوقظهم من سبات القرون ، لا اكتراث أو رغبة ستخرجهم من عالم خاص في دواخلهم حتى موات الحياة .

والصورة ذكرى . .

والقرب رباط للأنس .

يتذكرون إيصالهم بيتي ورجال الأمن السوري لما كانت أمهم بمرافقتهم . . وحين ذهب الضابط لأخذ موافقة المسؤول على دخولنا لقيهم ، اكتشفت أن للأمن السوري مركزاً للحراسة ، وعلى بعد خطوات منا فقط ، وعند أول شارع يقطعه . .

تلك نظرات الرجال الحجرية تتفحص وتتابع وجوه الأمن وتصمت .

يحدقون بأسى رغم ينظرون فلا يرون ، يسمعون ولا يرون .

كأنني أصرخ في البرية . . يسمع توسلي أن يخرج أحدهم من الصمت ويتكلم .

بعفوية قاتلة يتحرجون . . وأنا أسابق الوقت وأكرر وأؤكد لهم أنني منكم ، وأريد أن أسجل شهادة للتاريخ .

هل أشفقت رؤى على شيبتي أم هو التهكم من صمت الرجال وخوفهم؟

لم يكن في وجه وبين ما بين بخور الصالتي ، أو احتمال أن يأتي بما لا يُتوقّع منها كانت مراهقة لا تزيد على ستة عشر عاما ، أميل للقصر ، ثيابها بسيطة ، وبشرتها حنطية ، وشعرها أكرت ربطته إلى الوراء في إهمال بادٍ ، اقتصر الكحل على أهدابها ولونها الكبير ، ولبس الشبه مرآة تختفي تطرح جسدها وترعم جماله .

تحاول أمها ردها عما تعتزم وتمسك بها لتتخلص من نواهيها ، وفهمت من تنافر كلماتها أنها تريد النزول إليّ ، وأمها تهمس بما لا تقبله الصبية ، وحين الشك تطرقنا ، ألوحت بيدها وصاحت : هذا يزال ويحكي التي شغله وما يخالف من حقه .

تتحملني ، وإن لم يحرك ما ستقوله بين حجر العيون ، وتصلب الثاني ، وانطلاق الأسى وجلال أحرسها عرتها

تركتُ المسك بين الذكريات فالتمعت عيناها ببريق التحدي والعزم ، ووجهها طفل امتلأ بسمة الراهقة وتحولها ، وضاقت عينان صغيرتان مستديرتان تنسجمان مع ملامح دقيقة ، وكل ما في من يعكس عمق الكعوات بأنوثة تضيع في حرب مضمرة ، وبدت يطاير من كل الزوايا .

تستحضر بين تفاصيل ليلة القبضة تسايل رأها كلماتها .

أغلق والعائلة الباب والنوافذ دون صراخ تساه والأطفال ورجال ملاحير ، يطو قرباً رهيبا ، يستظلون بالكين ، ويطلبون الرحمة ثم يتهامرون ، وتتعالى طلقات الرشاشات تخرس الرجاء ، وأصوات

تركض حائرة ، وصرخات ألم الموت بلا رصاص تشق سماء لا تسمع ، وتحطم كل الأجساد ويحطم صراخ الموت بسلاح لا صوت له ، وشتائم وطلقات ، وأبواب تُغلق ثم تُحطَّم ، والرعب يكتنف جحيم المكان .

يحتضن والد ربى عائلته في زاوية الغرفة ويناجي ربه في صمت . . تشل حالتنا زحفنا نحو البلاط فأرتاح طرف الستارة ، ويهمس برعب بأن مسلحين يسدون باب المخيم ويقتلون من يحاول النجاة بالسلاح الأبيض ، وجثث تتكدس ، وصراخ يصم الآذان ، وعويل واستجداء الرحمة والحياة ، وشتائم وانتقام . . ثم أرجل تسير مسرعة لبعثر الشهداء وتزهو بالانتقام ، تبتعد قليلاً ثم تهتز الأرض لتوقف سيارات جيب مسرعة فتقصر عجلاتها ، ينزل منها آخرون مدججون بالسلاح ويبدأ جولة قتل جديدة .

سمعت ربى خطوات القاتلين وأصواتهم وبعض ما يقولون ، كانوا عند باب المخيم على بعد أمتار قليلة من بيتها . . انهمر الرصاص متصلاً من جديد ، شتائم وتأكيد أن أهل المخيم يعرفون من اغتال بشير الجميل ، وسباب لم يترك أختاً أو أماً أو ديناً . . فيجهد الرجال وهم يطلقون الرصاص على كل شيء . . وأطلقوا ما تبقى من ذخيرة على بيوت أهالي المخيم ، تهاوى والد ربى وظن أنهم قادمون ، يجرّ زوجته بعيداً عن الغرفة ، واحتضنت أولادها في رعب وانتظار الموت . . ساد هدوء طويل إلا من بعض أنين خافت لواحد . . ثم اشتد

ميست حتى إلى ظهر اليوم التالي .

كشف النهار بشاعة الجريمة .. تعالى النواح والصراخ للجموع استعملوا السلاح الأبيض أكثر من الرصاص لإبادة القوم .

وريس في الغرفة وهم ينقلون الجثث فلا تحتمل ما ترى .

تستجمع الشابة ما رأت ، لتغتسل من رعبها وبشاعة ما اختزنته ذاكرتها ، تلبث قليلا لتبدو أكبر من سنواتها فتقول : جاء الأقارب يشيعون أهلهم ثم تتابع المصورون والصحفيون وسيارات الإسعاف ، وكانت رائحة الموت وتعفن الأجساد والدماء لا تُحتمل ، ولم نستطع فتح النوافذ لأيام طويلة .

فهل أرادت ريس وهي تتكلم بخطوط مبعثرة قابضة لتصافح كلماتها تساؤل بشاعة الصور ، أن تغتسل بالاعتراف؟ بأن واقعها سقط مغشيا عليه؟ وأنهم كالآخرين خارج القيم سمعوا الشكاة من يذبحون فأخرسوا بحرقهم وصمتهم؟ أم أرادت أن تتطهر بالاعتراف لأنها وطوال تلك السنوات ، كانت مثل صاحبتها خرساء ، بالخوف تعرف وتسكت ؟

هل ثارت العصبية على ضعفها وصمتها ، أم على صمت رجال يعرفون فلا يبوحون؟ .

قالت بشجاعة الفضح من حولها بأن لا أحد من هؤلاء ، فليس يخرج بعد المذبحة أو يقترب من القيم ، لأن أرواح الضحايا تحوّم في شوارعه ، تستغيث وتريد أن تنتقم ، وهي تشكو إلى ربها قسوة الإنسانية؟

فهل أراح ريس اعترافها؟

عن تلك الليلة اللعينة » . . تقول ربى .

ولم تكن تعرف أن الأهوال تكتنف المخيم .

لكنها مثل كل من كانوا حول المخيم لا تغفل عن الشرفة ليلا ، فالأرواح تتجول وتصرخ وتوقظها من نومها .

ولا تعرف ربى أنها كوابيس تجربتها المريرة .

تتابع ربى عيون الرجال بينما الكاميرا تصور وجوها لا يعرفها حتى استرجاع مفجعة . تتلعثم الأحاسيس بالخوف . والمنظر قادم لن يحمل هولا يجسم ما مضى . . فلا شيء يفسر كوحش القتل في ليل الإظلام والقتل .

هكذا تحدثت ربى عن نفسها بوجود الأمن بالحديث عن حرب المخيمات ، كل الرجال يعرفون أن أحد أركان التعبئة في عملية الأمن السوري ، فالتحالفات السياسية تتقلب وتنعطف ، وتاريخ الماضي قد يقود إلى ملابسات كثيرة منها تل الزعتر .

تقفز ربى إلى خاطري ، ساطعة الحضور كلما ذكرت صبرا وشاتيلا أو حرب لبنان . . أتذكرها بتوجهها البسيط وجسدها القصير النحيل وأنا أقرأ من كتاب لصحفي فرنسي أرخ فيه للحرب الأهلية وحرب المخيمات ، وصدر بعد عشرين عاما من مذبحة صبرا وشاتيلا ، واستند إلى شهادات ووثائق توصل منها إلى أن جهات عدة اشتركت في جريمة القرن العشرين .

لم تكن شاهدة العيان ربى ، أتاح لسنوات من فحص الأسلحة

وجمع الشهادات والتحقيق في صور الجثث وأخبار الوكالات المصورة ، ليتأكد أن إسرائيل لم تكن وحدها في جريمة العصر ، بل أطراف ثلاثة ولغت في دم الأبرياء ، بأسلحة مختلفة والأهداف متشابهة . . وأكد الصحفي ما قال مشيرا إلى الميليشيات بأسمائها وأصحابها وكلها مجتمعة على ذبح المخيم . قتل الإسرائيليون أفرادا تابعين لمنظمة التحرير والفصائل الفلسطينية ، وأجهزت القوات اللبنانية بقيادة إيلي حبيقة ثم جيش سعد حداد على من تبقى من رجال وأطفال ، وذكرهم الصحفي الفرنسي بالاسم .

وروى شاهد عيان ، عرضت حقا بلا وثائق أو استقصاء ، وسجلته صحفا بطريقة مصرية ، كانت تصرخ وتؤكد بأن أطرافا اشتركت في الجريمة ، وأن الذبح كان على دفعات متلاحقة ، وأن الموت كان يأتي أسرابا ، وتباطأت جهات لإبادة الجميع

هذه المعركة هي التي أخرست الرجال ، فأحد أطراف الجريمة إيلي حبيقة كان حينها في حمى الجيش السوري ، فصعد للأعلى في السياسة سار طريقه اليوم .

فشاهد روى أنهم كانوا يتكلمون بلهجات مختلفة ، وبعضهم بالعبرية .

أصر على تصوير المخيم ، ورفض الأمن ، يتشاورون طويلا ثم يشترطون أن تقطعه بالسيارة ذهابا وإيابا لمرة واحدة ، ويلوحون ليكف يعمل عصبي بسرعة ، أسند إذ ظل يصوره من نافذة السيارة .

التقط الكاميرا متأملاً الغيم ومنتظراً لا يمضي ، كهلاً بين الخراب وحده ، عله ما أخبرته عيناه فلم يعد يعنيه ما حوله ، كان مرورنا حدثاً لهم جميعاً إلا هو ، لم يرفع عينيه وهو يعد لقوت القليلة حتى ولّينا أسرع (صوره صوره) .. يلتقط ما تبقى من غرفة كانت منزله ، زاوية من نصف سقف تعلق على جدار كامل ، يصعد إليها بدرجتين ، ولا باب أو جدران ، يجلس على أرضية خالية إلا منه ، ويفرد على صفحة جريدة قديمة أكياساً صغيرة من الكلس والحلوى يبيعها للصغار ، ويحتل في قطع نقدية معدنية حصيلة يومه ، يلبس معطفاً قديماً في حر بيروت ، ولم يرفع رأسه صمتاً يحمل .. كانت ثريات الجاري مكشوفة أمامه طالها القصف والدمار ، تتناثر شظاياها وحبالها المعدنية وتعاليها نحسه في انتقاع العجلات فوقها ، لا يدري أو يرفع بصره .. لا شيء يعنيه ، كأنما انتزع نفسه وحده .. سحب ذاته إلى عالم لا يعرفه سواه ، وإلى قصة لم تعد تهم غيره ، شارد عما حوله من ركام ودمار وقصة محفورة فيه ، كأنما ينتظر موتاً أشطاً حين تنسيه تلك الحالة .. وتركه وحيداً .

( آه يا وجعي) .

رتبت لي قوات الأمن السوري لقاء مع حبيقة دون علمي ، كان قد انشق عن الكتائب ، وفي حرب بيروت لا تنتهي ، مسيحيون يقاتلون مسيحيين ، وطوائف المسلمين تتصارع وتتنازع ، وسياسات تتلسم وتتحالف .. ولكن تصريحه لنا لأول مرة بأنه تلقى التدريب

في إسرائيل مع الشبان الكتائب ، وحدثته عن علاقة حزبه التاريخية مع إسرائيل كانت ضرورة إملائية حينها . وحين سألته عن صبرا وشاتيلا قال إنه لم يشترك بها بنفسه ولا يعرف إن كانت عناصر ميليشيات أخرى قد اشتركت فيه .

سجلنا اللقاء في شقته الأنيقة ، والمطلة على مكاتب الأمن السوري وتطل على البحر ، قدمت خادمة فلبينية شراب الليمون في أكواب كريستال على صينية من الفضة ، وكل ما حولنا ينم عن ذوق رفيع ، يحتل حرسه الخاص داخل الشقة وخارجها ، فتشوا أجهزتنا جهازاً وتفقدوا الآلات وما تحمل .

ثم جلد . . لطيفاً ودوداً في تعامله واستقباله ومهذباً ، فكيف أمكن لشاب مثله أن ينغمس في القتل والتعذيب والولوغ في الدم؟ .

هو جنون حرب أشعلتها كل الأطراف ضحاياها فأغرقوا البلد الجميل بالدم والدمار .

سجلت لقاء مع حليف آخر لسوريا هو عاصم قانصوه ، أخذوني إلى بيته عند العاشرة ليلاً . . تحدث عن الدور السوري في حفظ الأمن وحماية اللبنانيين ، وسألني عما أنويه ، قلت إنني آتي للوصول إلى بعض المحاربين في خنادقهم ، ولكن الأمن يراقب خطونا علينا ، ومهمتي ستنتهي في الغد دون أن أعرف كيف ألتقي مع عناصر من الميليشيات والمحاربين .

ولم أستطع أن أحقق وعده .

صحبنا سائقه في الصباح وعجيب الغاضي وفي حراسة مرافقيه تسللنا إلى خطوط التماس . قابلت ميليشيات في خرائب كانت يوما بيوتا ، يقاتلون من خنادق حجرية لبنانيا آخر ويعتبرونه عدوا ، ويترصدون به .

شعور عجيب حين بدأ قصف قصير بين المتقاتلين ونحن في المقتل ، لم أفكر بالموت ، بل بالمهزلة ، أن أدخل فلا أشاهد بعيون الثار ولست نركض إلى المعقل .

وبيروت غير ما عرفت .

العاصمة لا يُحسِن أحد أين يكمنون أو متى ولماذا يقتتلون ، ومتاريس متصلة لا تتبين معها ملامح أمكنة عرفتها . .

قبل تحميل الكورنيش وتهلك سمعته ، يابسة عطشى للماء والحياة ، وعمارات رأس بيروت مهدمة بمعالمها الحرب وقد ظلت تفاخر بأناقتها ، استبدلوا زجاج نوافذها المهشم بالورق والبطانيات ، وعلى شرفاتها تتكوم وتتدلى حبال غسيل المهجرين من الجنوب احتلوها وسكنوها .

ثلة من مطاعم الروشة ما زالت تعمل ، تلك التي لم نعرف إلا ملعب بيروت والأمواج زوارها والعشاق على الشموع ، سمرت أرجلها بمتاريس الرمل . . زبائن متباعدون ، عسكر وصحفيون ودبلوماسيون يتناثرون في ساحاتها ، وصخرة الروشة من وراء زجاج المطعم صامتة أكلها . تفتقد الأماكن حبيبها في الحروب كما البشر ، كيغزون الصخرة

إذ تتبادل شكوى التعمير والقتل مع كل ما حولها .

تتصل أكياس الرمل خلف مداخل السفارة القطرية مع متاريس مجلس النواب .

مدخل الأولى والثاني ، كلاهما ثكنة تحيطها الحراسة والترقب والخوف وتحتمي بأكياس الرمل .

أقابل حسين الحسيني رئيس مجلس النواب آنذاك ، وحوله ثكنة من الجنود تحرس المكان .

لا يجد هذا الرجل سوى الأمل في انتقال لبناني برعاية عربية ، وقد بدأت تكهنات حوله تتسرب في دوي القصف وجنون الحرب .

أكتشف أن ملابسي اتسخت بالعرق ومكياج ساح في حر بيروت ورطوبتها ، وانقطاع الكهرباء ، وصيف حار لا يترفق .

أخرج

أنتقل لأقابل رئيس الوزراء الدكتور سليم الحص في مكتبه .

رئاسة الوزراء ثكنة حجبت ملامحها المتاريس الرملية والقواطع ككل بناية غيرها . . وضيع بهاء ساحتها ومداخلها منعرجات مرورية تحسبا لهجوم محتمل . أكياس وجنود ومراجعون ، كل في عجلة فلا أمان في أي مكان . . وجميع أبنية بيروت الرسمية معاقل عسكرية .

قاعة الانتظار في مكتب رئيس الوزراء تعج بالصحفيين المحليين والأجانب .

مديرة مكتبه هي ابنته الوحيدة .

ولما كنت وما زلت معجبة بتذكر هذا الرجل، وازددت إعجابا بإنسانيته ووفائه لزوجة أحبها وأخلص لها، حتى بعد أن خطفها الموت.

تطلعت ريما تلاحظنا لأننا نرافق الأمن السوري وفي حمايتهم، ونتدخل على رئيس الوزراء بلا انتظار بينما يحترق الآخرون لدقائق من وقته. ولم يدركوا أننا نسابق الزمن المحدد، وأن الأمن يود التخلص من مسؤوليتنا المزعجة.

فرحتْ بيروت بحزنها القابع بهالاتها وألقها.

نمر ببعض الجنود السوريين بالبيريه الحمراء. بمعالم الأمن الشديد، فيلفتني مرورهما نحو أعماق عسكرية.. يحدثني محدثي أنه أحد القادمين أو ثلاثة العساكر سوريا في مناطق متفرقة.. ولقد أمضينا تلك اللحظات في الرصاص مرات عديدة، وكلما تحدثنا عن الوجود السوري في لبنان.

في منطقة الشاطئ ومسابحها المشهورة، قال بعد الفينيسيا والسان جورج أبرز معالم المدينة سياحة في مراتب سوكام، وكان علي علوز تيكمي وهو يقود السيارة أن يقطع بنا الكورنيش بأقصى سرعة، والضابط السوري يقول ويشد الفائقا من نافذة تحمي الهدف رصاصة لن ترحم.. فهياكل الفنادق تلك الكائن الأثري القناص بقتل كل من لا يعرف ويتحرك في الليل.

لا يمكن وصف الدمار في بيروت وأثره على جدران كانت بيوتا،

صادفت ساحتها الشهيرة وأسواقها وصارت ركاما . . . ويستعصي فهم شعب أعلن لم يرحم بشرا أو حجرا ، فالطوائف والمذاهب تتصارع فيما بينها ومع الآخرين . . ولبنان يقتل نفسه

عُرِضَ البرنامج في قطر فثار اللبنانيون في الدوحة .

طلب السفير اللبناني لدى قطر مقابلة الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني وكان وليا للعهد ، وقدم عريضة شكوى رسمية ضدي باسمه ونيابة عن الجالية اللبنانية في قطر لأن البرنامج يزيد الاقتتال بين المسيحيين والمسلمين ، بينما تدور محاولات المصالحة الأخيرة . فالقتال الطائفي ، وأنني كنت متحيزة تماما ضد المسيحيين ، والجالية اللبنانية غاضبة لاتهامها لأن البرنامج يؤلب الأطراف ، ويستعدي المسيحيين لكنني لم أذهب إلى الشرقية متعصبة ضد أحد وجهت نظر الغربية المسلمة ، وأنه باسم الجالية يطالب بعقابي ومحاسبتي والتحقيق معي ، فالبرنامج مؤيد لطرف واحد بما يتنافى مع سياسة قطر المحايدة .

ولم يُحقَّقْ معي .

ولكن تطلب الأمر كثيرا من الوقت والشرح لتفهيم المشاهدين اللبنانيين أنني لم أكن متعصبة ضد أحد أو متحيزة أبدا ، ولكنني وضعت حالهم أمامهم ترفضوا تصديقه ، واستنكروا بشاعة وهول ما سمح به اللبنانيون على أرضهم ، كرهوا صورة سرطان الاقتتال وحروبهم من ذبح في حق وطن صغير جميل .

• • •

# ابنة السماء ـ جميلة

قسما بالنازلات الماحقات
والدماء الزاكيات الطاهرات
والبنود اللامعات الخافقات
نحن ثرنا فحياة أو ممات
وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر
فاشهدوا . . . فاشهدوا . . . فاشهدوا!

تردد نشيدا واحدا سيطر على الفكر والروح طوال رحلة الطائرة من مطار شارل ديغول الفرنسي وحتى الجزائر العاصمة ، تلك الكلمات العنفوان طرزت مشاعر الطفولة والمراهقة ثم تفتح الوعي ، لحن رائع وضعه العبقري محمد فوزي صاحب أشهر أغاني الأطفال العربية ، تسحب الليل طلع الفجر ، ومنذ زمانها بينه . . هو شروق وطفرة موجهة فتية لقا .

وأنا من جيل تربى على عشق الجزائر ، وغنى بثورة المليون شهيد قبل أن تعلن الجزائر أن ترابها ارتوى بدم مليون ونصف ، لم يحتفلوا حتى تحرروا .

تنشقتُ الجزائر ثورة في إيقاعها صوت العرب، وشعرا وأغنية وقلما، وكتبت مواضيع الإنشاء عن بطولاتها طالبة في الإعدادية، وتبرعت بمصروفي القليل مع زميلات الدراسة لثورتها، وبكيت بحرقة لتعذيب بطلتها جميلة بوحيرد في فيلم يوسف شاهين، وصرخت مثلهن كلنا جميلة كلنا فداها، ثم خرجت مع مدرستي ابتهاجا بإعلان استقلالها.

هي الجزائر في الوجدان والخاطر.

كانت بلادي الأولى أرض الأبطال والتراب المروي بالدم شقيقة لفلسطين، أراد التلفزيون القطري تقديم أفلام وثائقية عن الدول العربية، وفرحت لأن حصتي، الجزائر والمغرب وموريتانيا.

هي الجزائر إذن

هل جئت أبحث عن الجزائر كما تتشكل وتصير، أم عن حب لا محدود وإعجاب بطفولتي حتى من الماضي البعيد؟

أكتشفها بكل صور الحب والإكبار والبطولة الأسطورية، لتبحث عيناي عما يظهر فيها، وعن إرهاصات الآتي في إعادة التأهيل بعد الاستقلال.

كنت أبحث مع قلبي عن رموز تعلقنا بها، فرأيتها باستدلال طفلة تكبر وتنظر وتتسامح.

جئت أبحث عن جميلة بوحيرد وأحمد بن بللا وعن القصبة ودماء الشهداء على جبال الأوراس والأطلس.

كنت أعرف أن جميلة بوحيرد تزوجت محاميها الفرنسي ، وأن أحمد بن بللا مفجر جبهة التحرير الجزائرية وأول رئيس للجزائر سجن ، ثم فرضت عليه إقامة جبرية في منزله ، وتزوج امرأة قبلت أن تقيم معه في بيت لا يخرجان منه ، وأن هواري بومدين مرض ومات ، وتهامس بعضهم عن ظروف غامضة لوفاته كما يحدث عادة عند وفاة زعيم ثورة يختلف مع رفاقه ، وأن الرئيس الحالي هو الشاذلي بن جديد .

رغم ما أعرف بدأت أبحث عن جزائر حلمي أنا ، عن أبطال سكنوا وجداني بنفس القدر مما أثير فيهم وحولهم .

وظل جبروت النوستالجيا واحتلالها ذهني ، يسحب الفضولي ويدفعني إلى الشرق فيها .

طلبت لقاء جميلة بوحيرد ، وزيارة منزل أقام فيه أحمد بن بللا جبريا

كنت أبحث عن جزائر الخاطر بعين القلب بينما جزائر الواقع تعاني مشكلاتها العسيرة .. وبدا الحل أكثر صعوبة من معارك التحرير ، والفقر أصعب من قتال الثوار في غابات وجبال قهرت طبيعتها وبطولتهم جيوش الفرنسيين .

وساحرة هي الجزائر ، يمتد ساحلها ليكون الأطول بين دول الشمال الأفريقي ( ١٢٠٠ كيلومتر ) ، تتبع جبال الأطلسي من رماله ، تتسامق وتطاول ذرى السماء ، سلاسل خضراء ترتفع كهامات يعلوها

شامخة بالاعتزاز بهويتهم ، وشلها جبال الأوراس معقل الثوار ، جبال صخرية شاهقة يتنوع مناخها كأصقاع الجزائر ، حر وثلج ، أمطار وغابات ، صخور وتراب ، ومن خلفها وجنوبها صحراء رمالها تبر [illegible] ، تتناثر فيها واحات رسمت جمالها الأخاذ يد خالق فنان .. بلاد تأسر ألوانها القلوب ، وتفسر إصرار فرنسا على احتلالها واعتبارها ولاية منها .

حين زرت الجزائر بعد ذلك مرات ، كنت أكثر واقعية في رؤيتي لمعالمها وإن بقيت متيما بها .

جمال الجزائر وغنى طبيعتها كان وبالا عليها كما في بلدان كثيرة .

أثرت الاستغراب من حولي وتبرمهم واستهجانهم وأنا أسأل وألح وأبحث عن أبطال لا يريد أحد أن يفتح الحديث حولهم .

وتسنى لي زيارة [illegible] أحمد بن بللا أول رئيس جزائري بعد الاستقلال عام ١٩٦٢ ، بطل رياضي ، ولاعب محترف في كرة القدم ، لعب مع فريق مرسيليا الفرنسي الأقوى على مستوى أوروبا آنذاك ، ثم بطلا متوجا في الركض لمسافة ٤٠٠ متر ، شاب وسيم متدين انضم إلى جبهة التحرير والاستقلال ، فصار زعيما سياسيا ورمزا لتحرير الجزائر .

سارت السيارة ربع ساعة تقريبا ، ثم توقفت أمام بيت عادي على مشارفها ، نعم ، علقت عليه لافتة «الاتحاد النسائي الجزائري» .

أمشي وتمشي على ممر حجري مرصوف بين ورود وأشجار مثمرة .

عرفت أنه احتُجز قيد أحمد بن بيللا قبل أن يمضي إلى تونس ، وبعد أن التقى به الكولونيل هواري بومدين ، صديق عسكري جنده في الثورة وجبهة التحرير الوطني الجزائري حين كانا في مصر ، أحمد بن بيللا لدعم ثورته من الرئيس عبد الناصر ، وقد ساندها ماديا وعسكريا وإعلاميا ثم بعظمة جميلة بوحيرد ، فهب العالم العربي متضامنا فخورا بكفاح ومقدرات عربي لا يستكين حتى يتحرر -- بينما العسكري هواري بومدين طالبا مبتعثا إلى جامعة الأزهر ، فتعرف إليه أحمد بن بيللا ، وأقنعه بالانضمام إلى ثورة التحرير .

كنت أسير على الماشي ، وكانوا سيبهرون بأن أظهروا بحقي تبرم مهذب . وحين تكون شابا لا تولي كثيرا انتباها لما تقول أو تفعل .

لم ألتفت كثيرا إلى صدمة الجزائريين بتكريس «الشرقيين» لبطلة وحبيبة في ثورتهم هي جميلة بوحيرد ، فجميلة ابنة شعب سقط منه مليون ونصف المليون شهيد ، وهي فرد من شعب كله مجاهد ومناضل وطموح ومتحدٍ والمنتصر -- شعب كله بطل -- ، وتَسَلَّمَتْ جميلة الجزائريين حين تزوجت محاميها الفرنسي بعد استقلالهم مباشرة ، ومساء العمر ما زالت طويلة ، ومن اختاره وأحبته البطلة فرنسي من دولة محتلة ، ولا يشفع لقرارها كل مواقفه وما فعل . . . محام شاب اشتراكي أوروبي دخل إلى قاعة المحكمة صارخا إنها ليست وحدها ،

فكل أحرار العالم معها ونصيرها ، وتراجع عنها ومنع حكما بإعدامها ، ودعم الثورة ومطالبها ، وتابوا حكومته ووقف شعبها ، وتظاهر رافضا لاستمرار احتلال فرنسا مطالبا باستقلال الجزائر ، ومنه فضل كثير من مفكري فرنسا الليبراليين ، كل هذا صحيح وبقدره شعبها .. لكنهم استنكروا أن تتزوج بمحاميها رمز ثورتهم ، لأنه فرنسي ومن دولة الاحتلال سفكت دماء أبناء وطنها وشعبها؟ . كتب بعضهم رافضا ما اختارت جميلة . ثم رسمت جريدة الأحرار الجزائرية كاريكاتيرا لبوحيرد وهي حامل ، وفي بطنها جنين يلبس برنيطة فرنسية ، فثارت جميلة لإنكار تضحيتها والتشكيك بإخلاصها والتدخل في حياتها ، وقاطعت الصحافة ، وما زالت تحترس منها حتى يومنا هذا .

كانت رئيسة الاتحاد النسائي في انتظاري ، تتكلم العربية الفصحى بطلاقة بادية .. وقد غدت العربية لغة رسمية وحيدة للجزائر الحرة منذ عام ١٩٨٠ ، إثر حركة تعريب بدأت مباشرة بعد الاستقلال ، وساهم فيها مدرسون من أنحاء الوطن العربي . والتعريب معركة حقيقية فاللغة تعالجها الجزائر ، فالشعب ، المتعلم منه قبل الأمي ، لا يعرف العربية إلا نادرا ، فقد فرض الاحتلال الفرنسية لغة رسمية وحيدة لأكثر من قرن ، في الدوائر والمدارس والمحاكم .. وكتب كبار الأدباء الجزائريين روائعهم إبداعاتهم بالفرنسية فلم يصل للعالم العربي إلا مترجما ، وقد ترجمت وتبنت حكومة الجزائر بمناسبة احتفالها بالجزائر عاصمة للثقافة العربية ٢٠٠٧ جميع أدبياتها

عن كثيرا بالفرنسية ، ليتعرف أبناء شعبهم على إنتاجهم الأدبي ، ومنهم آسيا جبار ورشيد بوجدرة وكاتب ياسين وياسمينة خضرا وكثيرون .

كما وضع مدير المكتبة الجزائرية الأديب أمين الزاوي مسرحية شعرية (بطلة من بلادي) تشيد بكفاح جميلة بوحيرد ، فأعاد بعض اعتبارها ، وتذكرها جيل شاب لم يعرف كثيرا عنها ، ولقد شغل الجزائريون بما اقترفه الإرهاب في بلادهم ، وبالصراعات الحزبية التي توحدت من أجل التحرير ، ثم أطلت برأسها متوحشة وعنيفة بعده .

وسارت الجزائر مع بناء دولة الاستقلال متشابكة ومتعددة الجبهات ، فليست الحرية فقط ، لاستئصال الاحتلال والتخلص ، كانت وعود البناء مع النهضة ، وقصص البطولات تُطوى وتُبتذل ، وينكر الباحثون عن أدوار ومراكز في الدولة المستقلة للكثيرين متعمدا فرص إثباتها بتضحياتهم وجهادهم وحريتهم وشبابهم .

هي الثورات تأكل أبناءها .

يستقبلني بيت الزعيم أحمد بن بيللا ، بطل الثورة الشاب وأول رئيس جزائري ورفيق جمال عبد الناصر ، ما زالت مأمونة بمكانة يحافظ على ما تحويه . ليس فيه ما يميزه إلا أنه على هضبة مطلة ، ومحيطه المتقشف .

أدخل غرفة صغيرة على يمين المدخل ، يتصدرها مكتب خشبي عادي ومقاعد عادية ، ونوافذ صغيرة على الطراز العربي طُليت باللون الأخضر ، ولا تسمح ستائرها بنور كثير ..

وكانت هناك ..

جميلة بو باشا لا بوحيرد .

أجمل ما رسمها بيكاسو في بورتريه عام ١٩٦١ ليتين كتابا صدر ١٥ لوحة لكل اعتقال نساء وشعب الجزائر ، وأفضل ما كتب عنها جان بول سارتر في مقدمة كتاب «جميلات الثائرة عن المجاهدات الثائرات جميلة بوحيرد ، وجميلة بوباشا وجميلة بوعزة ، وسارتر هو صاحب كتاب «عارنا في الجزائر» . أما بيكاسو فقد أمضى ثلاث جزائريات في منزله في باريس تأييدا وتضامنا مع ثورة شعبهن .

رسم بيكاسو وجه جميلة كامرأة من جزائر جميلة ، ثائرة ومتعلمة ، ليدحض صورا نمطية ألصقها الاستشراق عن الجزائريات كحريم في مخادع الولاة ، وكرس صورتهن للمستشرق الفرنسي دي لاكروا الضابط الرسام ، كلقطة جنس مفتوحة لأكثر من فرد .

كف جميلة اليمنى تغطي يدها اليسرى في صفحتها .. أدركها جمعية بالفتنة والضرورة ، انتزع رسمها من كسر الصمت وصمتها أثناء اعتقالها وتعذيبها .

باغتها الفرنسيون ليقبضوا عليها بعد أن طوقوا بيتها واعتقلوها مع شقيقتها متهمة بوضع القنابل ونقل الأدوية والمعلومات للثوار .

كانت جميلة بوحيرد قد اعتقلت حين أعطى الاحتلال الفرنسي بدأ اعتقالهم زميلتها ، جميلة بوعزة ، صديقتها ورفيقتها في النضال

وعلّوا بتعذيبها المحترف .. صمدت بعزة في قسوة ووحشية التعذيب الجسدي والنفسي وكانت فوق الاحتمال ، فباحت بأسماء رفاقها وما نعرف ، وقوة احتمال التعذيب والاغتصاب والإهانة تتفاوت حتى حد الموت ، وتحطيم الكرامة الشخصية والإحساس بالذات طرق ناجعة لانتزاع المعلومات والاعتراف من المعتقلين ، يطبقها المحتل والأجهزة الأمنية في العالم بأسره ، ومارسها الفرنسيون بوحشية حين اشتعلت ثورة المليون ونصف المليون شهيد ، وبرز دور النساء فيها . اعترفت بو عزة على بوحيرد بهستيريا وصراخ ومظهر غير طبيعي دفع القائمين إلى المطالبة بالكشف على قواها العقلية لشدة تعذيبها . كشف الثوار صلابتهم وصعدوا كفاحهم ضد الفرنسيين بعنف دموي غير مسبوق .

كانت الجميلات في السجن حين قبضوا على جميلة بو باشا في بيتها قبيل الاستقلال عام ١٩٦٠ ، الشابة الحسناء ، ابنة العائلة الكبيرة الثانية . صبية في العشرين تحلم بوطن محرر وبيت يظلل فيه القلب مع من أحب ، وأولاد يتنفسون ما يملك أو يظللهم استقلال تناضل من أجله .. ويكبر الحب طاهرا في قلوب تتسع للوطن وما عليه ، وتحلم جميلة أن تتزوج حبيبها يوم استقلال بلدها وقد بدا قريبا مع تصعيد الكفاح .

شابة جميلة ساحرة بملامحها الإسبانية وشهقات الإكبار لحسن أخّاذ ونعومة طاغية حتى في عنفوان الثورة .. خفق القلب الصغير محافظة بمحبة طاهرة عفيفة لشاب رقيق ، حب لم يتعد نظرات تعكس

خوالج القلب . ويتطلع التحرير ليكتمل بها والمسيرة .

اشتد تصعيد الثورة قبيل الاستقلال وكذلك ضحاياها ، فتوحش الفرنسيون في تعذيب من يعتقلون من الثوار بما فاق كل تصور . ولأن المرأة الجزائرية جزء من ثورة التحرير ، لجأ المحتل إلى الاغتصاب والاعتداء الجنسي المسلط على المناضلات للانهيار والاعتراف ، في الجزائر ومثلها فلسطين ، فالعملية وسيلة ضغط كلما تفشل في سياق الفكر الغربي الجمعي - . وقد اعترفت جميلة بوحيرد لأصدقائها بأن هم أمها الأول في زياراتها كلها أثناء اعتقالها - وهو ما تناسته - انصب على التأكد بأن الجنود لم يعتدوا عليها ، تلح وتسأل لتكذب جميلة لئلا تموت والدتها كمدا وحسرة .

لم تلتق البطلتان الجميلتان بوباشا وبوحيرد وجها لوجه حتى يوم لقائي بها . ولكنها تعرفت إلى بوعزة في سجن الاحتلال فقط .

هي جميلة بو باشا .

شعرها ستائر ليل طويلة كثيفة تحيط وجها ساحر القسمات . تماما كما وصفتها سيمون دي بوفوار وصورتها في كتاب عنها . عيناها سوداوان واسعتان وجسدها نحيل أقرب إلى القِصَر ، تغوص في طرف المقعد الجلدي ، ضئيلة أنيقة في هدوء ، فكيف تحملت وحوش الأرض وسباع الجبال؟ وكيف سارت بقدمين صغيرتين لتقطع الشعاب وتتسلق وعورة القمم في الأرياف والأطلس وظلام الليالي ، تنقل السلاح والغذاء والأخبار للثوار في الجبال؟ وكيف قاوم جسدها النحيل

ضباطا صغيرا وسيما من المظليين حاصروها واعتقلوها!! ثم هزمت زمرة التعذيب بالكهرباء، وكادت لحظة الاغتصاب حين زاد توحشهم صمودها وصمتها .. فطعنوا بكارتها بعنق زجاجة فأصيبت بنزيف حاد .. ثم ربطوا جسدها وأعضاءها الحساسة بالكهرباء، فصعقت، يركلونها عارية بأحذية عسكرية ثقيلة، ويحتسون البيرة ويبصقونها عليها، أنهكوها بالركل والضرب فلم تلن.

كتب شقيقها من معتقله إلى محامية فرنسية لتدافع عنها، فاتصلت بها برسالة في سجنها وطلبت لقاءها، فشاهدت فتاة نحيلة جميلة ساحرة صغيرة الحجم تخبرها أن كل شيء فيها تحطم وكُسِر إلا روحها، وتطلب منها أن لا تدافع عنها وحدها بل عن كل الثوار المعتقلين معها، وتشير إليهم وتروي عن نضالهم وتعذيبهم مثلها من وراء قضبان زنزانتها.

قاست بوباشا وتحملت أكثر من الكاهلات ثقلها. فقد جن جنون الفرنسيين مع اشتداد الثورة قبيل الاستقلال.

كانت جميلة البطلة تتكوم على نفسها بخجل وتموت عشرين مرة، فكيف لتلك المرأة الجميلة الرقيقة، والملامح الطفولية والبشرة المخملية الساحرة أن تحتمل ليلا في ثكنات الأبيار؟ لم تخرج من عوالم ذاتها، ولم تكتسب النُضج وحرارته ووعيها.. بعد عطائها لتسهم في كفاح شعبها.

بعدها شبه مشلولة تستعيد تفاصيل ما حدث..

أتذكر تصلب زميلتها جميلة بوحيرد في فيلم يوسف شاهين وبطولة ماجدة يوم انولت به وبأمان منها أسطورة لتحرير الجزائر . التذمر .

يبدأ التعذيب ، تسأل جميلة عن رفاقها .

أميل بصرها وتلفظ صمتا ، وتتفرس وجه رئيسة الاتحاد النسائي الجزائري .

تستعيد هويتها ملامح رفيق نضالها محمود عزوز ، الشاب المحبوب الذي حوله الكفاح إلى بطل جزائري مرموق دوخ الفرنسيين ، وهالني ما حدث

تعرف . . تخطي البطلة رجعتها لتمنع صورا أخرى ، لم تحتمل البطلة استعادات هول التفاصيل ، بينما يلح من حولها بنفاد صبر أن تتجاوز قسوته ومحنه وجروح روحها وجسدها وتتحدث عما لحقه الغاضبون بها . . أن تستعيد الرحلة ببسالة وتواجهنا بها .

تغرس رأسها المبلل في حضنها وتنفجر ببكاء متصل .

نحاول ونرجوها أن تتماسك .

تستحضر الماضي القريب ، لتختلها بوحها .

تنسحب البطلة . . وأغلب صوتي .

جميلة بوباشا ، عضو جبهة التحرير الوطني الجزائري ، سليلة عائلة وطنية دينية معروفة ، درست في مدارس عربية قبل أن تنضم إلى الثوار . .

إحدى الجميلات الثلاث لا تتوقف عن البكاء ، وهي تعدد رفاقا لها استشهدوا .

أبكي معها . .

يتوقف التسجيل . . يتبرم مدير التصوير وتتلاحق مواعيد أخرى وجميلة لا تمالك نفسها

أصلح ماكياج عيني ، ونبدأ من جديد .

تسترجع البطلة مشاهد كفاح لم تتأخر عنها إذ تشارك في صنعها ، ولكنها وفي استعادة الذكرى لأول مرة بعد سنين ، يوجعها توترها ويسكنها الصمت .

تغطي جميلة عينيها لتمنع تدفق المآقي ، تدفن رأسها في حجرها مرة أخرى . . وتبحث عن كلمات من العربية والفرنسية تعتذر بها .

أوقفنا التصوير لعلها تهدأ ، شربت ماء . احتضنتها رئيسة الاتحاد النسائي وترجتها أن تتمالك .

سألتها كيف ترى مستقبلها الشخصي بعد أداء واجبها الوطني ومستقبل الجزائر بعد التحرير؟

تنفجر البطلة ببكاء هستيري كأنها تنكأ جرحا عميقا فتنزف دموعها معه .

لم تحدثنا عن حب ضاع قبل الثورة ، تنكر لها من أحب بعد انتشار قصة فض بكارتها بزجاجة ، ربما لم يتحمل العاشق الشاب

أنهم توقفوا منذ عقد ، فحاسبوها على ثورة قدمت سابقا لأبنائها ، لكي يعيشوا في وطن حر ، لكنه اكتفى بها بطاقة ثورية ، ويبحث عن أخرى لم يُمزقها جنود خاسئين عثوا ونهبوا ويحتفلوا عليها بزجاجة الخمر يوميا .

ضاع الحلم الجميل لهذا الوطن ذات يوم حاسبها الحبيب على انتقام أصدقائها ولم يقدر تضحيتها .. ونسيت تذكر أن الجزائر كلها والعالم يعرفون ما فعله الجنود بها . يليق بها جلاده لا زوجته ، فتخرج جميلة من الاحتفال يوم الاستقلال محطمة قلبها .

تبكي جميلة وطنا يختلف قادته ، وتجتمع في سمائه نذر إرهاب سيدفع الجزائر ثمنا باهظا له .

لم تقدر عينها تطويق ما يُبكي الجميلة يوميا ، فقد رأته حولي ، بل وسايرتني الشكوك فأحسست ، اعتقدت أن تعيش الأجيال وهي منهم ، وإنكار الثورة ، والانزواء التاريخي بعد الاستقلال ، ثم انقسام الثوار واقتتالهم على حصتهم ، وانحسار الثورة يُبكي جميلة لعنت كل شيء لبلادها .

ولكن جميلة رأت أبعد ما رأيت .. كانت تستحق مستقبلا فسحت بكل شيء الشرق نسيه شهدائها وأبطالها ، تراءت لها حمامات الدم الجزائري تُرقى بسلاح شعبها ويحسم الدين ، يذبح الأخ أخاه ويحيى نسله ، فتطلع قسوة الإرهاب سماء تحررت ، ويحتل سواد الحزن والرهبة والخوف أرضا ارتوت بتضحيات أهلها . استشعرت من

فمضت بكل شيء، لتصبح الجزائر أن الإرهاب القادم سيبدل رغائب الحرية وانتصار النضال وفرح الاستقلال بؤسا ويأسا كبيرا، وهو يجتاح القرى بأكملها، أطفالها ونساءها، ويقتل ويحرق ويغتصب ويختطف ويساوم على الصلح ويجند شبابا تائهين، وينشر الرعب والخوف والتكفير حين نصب نفسه يد الله على الأرض.

قالت وهي ترنو إلى الأفق من النافذة على يمينها وتحاول رفع كتفها المتعبة:

- كان النضال في الجبال أفضل من الخيبة الآن، لم نكن نعرف أننا نموت ونضحي من أجل هذا.

وسكتت جميلة عن الكلام المباح..

ترجوها رئيسة الجمعية أن تخرج فتزداد بكاء، فسأل مدير التصوير ويرفض الاستمرار في هدر الوقت، وأشرطة محدودة لا تباع في الأسواق العادية، ولا شيء مسموح في بكاء حتى ولو من بطلة انسحب وجهها عما يكفيها.

أرجوه أن يكمل بينما تقدم لها رئيسة الجمعية ماء، وتسألها بالفرنسية تشير لتسحب لعشر دقائق.. نبدأ من جديد.

سجلنا نصف ساعة.. كنت أعرف أن ما يصلح بعد مونتاج سطحي لن يزيد على دقائق، ورفضت جميلة الاستمرار، واحتضنت رأسها من جديد.

خرجنا في تواصل نحيبها.

كنت يومها صغيرة ، وفي الشباب يتمحور اهتمامك حول ذاتك وما تود تحقيقه وما يجب علي إنجازه في مهمة قصيرة محددة ، ولقد اكتشفته لأول مرة .

شغلنا تعويض ما فاتنا من جلسات باللقاءات الأسرى ويتصور الجزائر .

أنتقل إلى بيت الأيتام وأبناء الشهداء .

كانت وضعيات الأسى تتفاقم هناك .

مئات من أطفال الشوارع بحكم القضاء والأيتام رغم ولادتهم من زواج شرعي صحيح وآباؤهم أحياء يرزقون . . فلم يتبق لهم من ثورة التحرير سوى الإقامة مع أيتام مثلهم ، وأمهات عاجزات عن كفالتهم لا يعرفن عملا ، تأتي بعضهن للافتقاد ، بينما تزوجت أخريات لتسعفن عيش وأسرة لتشغلهن عن زيارات منتظمة ، وربما الرحيل مع الأزواج بعيدا وانقطعت صلتهن بهم .

أمهاتهم جزائريات رضين بزواج أول ضحيات بهم في خضم النضال . . يولدن أبناء الأبطال ومناضلين ، وحلمن بأسرة الغد وتخرج إلى نهار الحرية بعد كهوف الجبال ، وحين أشرقت شمس الاستقلال بلحت الأحلام فصارت سرابا ، واختفى في النور أبطال ظلوا يتسللون إلى بيوتهم تحت جنح الظلام ، وباتوا في شساع الجزائر واستقلالها .

قلب أبطال ورموز وعادوا إلى أسمائهم وألقابهم ورسومهم الأولى في الصحارى والواحات والمدن والقرى البعيدة ، صاروا أثرا بعد عين ،

وتركوا نساء وأطفالا تزوجوهن وأنجبوا منهن بأسماء ثورية غير حقيقية .. وتفككت آلاف العائلات في كل مدينة ، وعجزت الحكومة أو السلطات أو أحد عن الوصول إليهم أو تحديد هوياتهم .. عرف الثوار ، من تزوجوا ومن شهدوا ومن عقدوا أو عرفوا أسماء ، لم تعد هي ، فاستحال الوصول إلى من تنكروا للزوجات والأبناء .

كانت الجزائر تعيد تأهيل ذاتها ، وهذه واحدة من أصعب تحدياتها .

ثار المناضلون الجنود والاحتلال والفرنسة ، ورفضوا التعامل مع محاكم لا تعترف بلغة القرآن وأحكامها .. ورفضوا عقد قران إسلامي لا يُسَجَّل إلا بالفرنسية ، أو بمراكزهم حين عقدت في المخفر الخاطرة الظهير ، فتزوجوا في الجبال والغابات والقرى النائية ، بشهادة رفاقهم وشرع الله ، شاهدين والشهود ... وبلا أوراق وبأسمائهم الحركية .

والثوار مزيج من القبائل والمناطق ، وكثير منهم جاء غازيا مبتعدا عن جذوره ومناطقه ولعله خوف ملاحقة أو وشاية ، أخفوا أسماءهم الحقيقية حتى عن زوجات يحلمن بعائلة رغم الخطر والموت .

هي الرغبة للقتال دفعت بهم إلى زواج كان وقته مرهونا باستمرار القتال .

توقفت الثورة مخلفة رجال تزوجوا بنية الوفاء والطرف المتروك للزمن . واختفت في إشراقة الاستقلال وأشعته الساطعة أشباح

بعض المقاتلين . . عادوا إلى أهاليهم وعائلاتهم في مناطقهم ، صحاري وواحات وجبال ومدن وقرى نائية ، وعثروا بوليدهم من نساء وأطفالا محبطين تائهين ، لا يتصورون طفلا يُلقي بهم ويهرب ، ينتسبون إلى مناضل لا يعرفون اسمه الحقيقي ، سلخ جلد المحتل وعاد رجلا لعائلة تركها يوما في مكان ما .

ولم تستطع حكومة الاستقلال حل المشكلة ، وغرقت دور الأيتام واللقطاء بأطفال تبلعهم في الليل تزاور النهار ، متسائلين بأي كان بطلا ثم انهزم سرا .

كبر الأطفال بلا آباء أو أوراق أو شهود تثبت نسبهم وحقهم في تراث ثوري شرعي ، تقاسموا على كل شيء . . على آباء تنكروا لهم ، وتركوهم أيتاما وعادوا إلى أسرة لهم لا يعرفونها ، مُشكّكين عليهم ، حتف لأشقاء يتساءلون بولد مجاهد حزم الفرنسيين ، ويجلس بينهم يفاخر ببطولة ونصر دون أن يذكر أنه ترك زوجة عُذّبت وأبناء للظلم بلا ذنب .

وظلم الأبناء على مؤسسات تؤويهم ، وعلى لياليها الباردة بوحدة لا ذنب لهم فيها ، مؤسسات تعدم القليل وتعجز عن إثبات نسبهم وحقهم فيه ، وكرهوا دولة وحكومة لا تستطيع حل مشاكلهم تتعثر على أبناء مقاتلين ، وعلى من قرر تزاوجا بلا أوراق . . قرار رمى بهم في دور الأيتام أو مع أمهات يعجزن عن حمايتهم ، قرار جللهم بالحزن بدلا من فرحة النصر .

وذلك وصلة من إرهاصات ما تشهده الجزائر من تطرف وإرهاب .

تعلم الأطفال على كل شيء ، فصاروا تربة صالحة للاعتقاد ، وقادهم معلمهم إلى السلفية حين عجز عن إثبات نسبه لبطل ومناضل خندقه وحرب .. ويشرح بعهده ما يقاسي نتيجة لما اقترفه الثوار عمداً أو بدون قصد .

صاروا تربة صالحة للتطرف مع مد سلفي اجتاح العالم الإسلامي بعد ثورة الخميني .

أسكتونا حين وصلنا العاصمة في مدينة الشلف عبورنا على الجزائر .

كان العاملون جزائريين .. رجالاً ، ملامحهم قاسية ولا يبتسمون . ويتسلطون على كل شيء .

وحين نادينا النادل اخترنا طعامنا الأول .

انشغلت عيناه بجمرتين بالغضب وأمسكنا بإشارة من يده ، ثم لم يلتفت إلينا .

انتهى من توزيع الطعام والعصير على طاولات من سبقونا .. ثم جاء يحمل صحوننا .. فأدركنا أنه طعام موحد .. الكسكسي باللحم .

ترنحت الأطباق حين ألقى بها على الطاولة بضجر كأنه يقول «أكلتم أم تسمموا حقاً لا يهمني ، أنتم لا تعرفون أني بطل جزائري ولست نادلاً» .

ولكننا حين سألناه عن الثورة أسقط الحواجز معنا.. صار أليفا ودودا وهو يستعيد ذكرياته في الجبال، كيف قاتل وانتصر.. ومن ليس له «جنرالات» في البلاط.

بعكس الكبار حين انحصرت أدوارهم في دولة الاستقلال.. تحولوا مومياءات تلقى عليهم في المناسبات بعض تضحياتهم في الكفاح، ولم يزاول بعضهم مهنة أو يعرف عملا غير النضال، ولهذا كبر سؤالا مع القرار.. انطفأت سقوف الدولة الحديثة وهي لم تفتح مثلهم، ولم تلتفت لتقديرهم، فعانوا من الخذلان والانزواء والارتداد والبطالة.

وذلك بعكس ما عاشته الجزائر، العودة إلى الثلاث، العرق واللغة والولاية والعشيرة والقبيلة بعد أن صهرتها ووحدتها الثورة إلى حين. واتجه كثيرون إلى التشدد السلفي يوم عجزوا عن تأقلم ذاتهم مع واقع جديد.. وحاول كثيرون نسيان غربتهم والتزامهم بالحسر.

كانت المشكلة آنذاك أن شعب الجزائر كله بطل ومناضل ومن أبطال التحرير، وكل بطل ترعرع صبيا مع الثوار لم يعرف له صنعة، ولكن الاستقلال يحتاج بناة دولة، إداريين وأطباء ومعلمين وعمالا ومزارعين وفي كل مهنة، فصارت المعركة الثانية الأصعب هي إعادة تأهيل المقاتلين وإقناعهم بضرورة المشاركة في بناء دولة مدنية.

مدينة الشباب حيث كنا في وسط العاصمة، محروسة وتغلق أبوابها مع العاشرة ليلا، وحرمونا من الخروج إلى الشوارع بعد الثامنة، ثم اكتشفنا أسباب خوفهم.

من نافذة الغرفة أسمع وأرى زُمَر الأطفال وهم يخرجون من الحانات سكارى إلى الشوارع ، يصيحون أو يبكون أو يهتفون نشيدهم الوطني : وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر فاشهدوا فاشهدوا . وكانوا على استعداد لقتل من يواجههم أو يسخر منهم .

كان التأهل معركة البلاد الحقيقية والثانية .

صورتا شعب الثورة ، وأزياء المناطق ، والقصبة ، والبحر ثم الجبال حول الجزائر العاصمة . .

نسير إلى تيبازة ومن بعدها نسافر جوا إلى عنابة .

أستمع إلى التاريخ الموغل في الحقب الرومانية ثم المسيحية ، وأبصر هرما صغيرا يؤكد أن الحضارات القديمة قاومت فكرة الفناء بصروح للخلود ، صغير لا يقارن بما تركه الفراعنة لهم بمصر .

تسحرني رحلة الخالق إذ رسم الجزائر ، شاطئا وبحرا وجبالا تتكاتف وتعانق السماء في سلسلة الأطلس والأوراس ، ثم صحاري شاسعة وأطلال برزت في الحضارة الإنسانية بثقافتها الخالصة ، الطوارق الذين ينتسبون إلى طارق بن زياد ، وفي رأي آخر لأنهم يطاردون الصحراء . . ويقال تزلزلت أرضها زلزالها وتجد فتفترض فيها مدينة أساطير .

نمر بمناطق شاسعة مزروعة بأشجار الفواكه ، صغيرة ، تبدو نشازا وخارج سياق الحالة الجغرافية في بلد البترول وسعف النخيل شبيهه .

يشرح مرافق من وزارة الإعلام . . فتتوقف الصور .

نشبت أزمة بين فرنسا والجزائر حول العمال الجزائريين المهاجرين وعائلاتهم، فرنسا تؤكد أن عليهم العودة إلى وطنهم بعد استقلاله، لأنهم دخلوا وأقاموا في فرنسا بلا وثائق، ولا يحملون جنسيتها، بينما تؤكد الجزائر أنهم دخلوا فرنسا كرعايا لها قبل الاستقلال حين كانت تعتبر الجزائر ولاية من أقاليمها، وعمل بعضهم مخبرا لفرنسا وضد بلده وثورتها، ومن المهاجرين من ولد هناك ولم يعرف الجزائر أصلا..

تشدد الطرفان، وانحصرت المشكلة بين الموقفين، فرنسا لا تريدهم، والجزائر لن تتحمل عبئهم.

كانت الجزائر ما تزال المصدر الرئيسي للعنب أساس صناعة النبيذ الفرنسي الشهير.. وقد زرع الفرنسيون آلاف الكيلومترات من أرض الجزائر الخصبة بأجود أنواع الكروم، ونص اتفاق الاستقلال بين الدولتين على استمرار تصدير العنب الجزائري إلى فرنسا خوفا من تدهور صناعة النبيذ، وهي أحد مصادر الدخل القومي الفرنسي.

انتظرت فرنسا نضوج العنب ومحصوله في بواكير الصيف، ثم تفجرت أزمة المهاجرين من جانبه الضغط على الجزائر.. أرسلت سفن الشحن في عرض المتوسط محملة بمئات آلاف الأطنان من العنب.. ورفضت إدخالها قبل التوصل إلى اتفاق بشأنهم.

بقيت البواخر في عرض البحر أسابيع في رحلة لا تستغرق أكثر من يومين، وتعفنت حمولة العنب في سفن غير مجهزة.

كانت كارثة وخطط الرئيس الكولونيل هواري بومدين بمحاولة

الإرغام، وليّ ذراعه من دولة فرضت في بلده وعلى أرضه .. أمر يماثله المسألة كلها في مياه المتوسط مذكرا بفصل من التاريخ الأمريكي المعروف (بحملة الشاي)، يوم أفرغ الأمريكيون سفن الشاي البريطاني في عرض المحيط معلنين رغبتهم بالاستقلال عن انكلترا ..

تحملت الدولة والمزارعون الجزائريون خسارة محصول عام كامل، ولم يكتف الرئيس الثاني للجزائر المستقلة هواري بومدين بالأمر بأن تُقطَعَ الكروم كلها، وتُزرَع أرضها بأنواع الفواكه، فلم تبق الجزائر تحت رحمة فرنسا واستغلالها في محصول واحد.

صوّرتُ أفلاما مثيرة بالغة تروي أقاصيصها حكاية أخرى في مسلسل شموخ وأنفة وعِزّ الجزائر.

قال لي روائي مسرحي ومثقف جزائري بارز: إن ما فعله بومدين حينها ردة فعل عصبية وغير مدروسة، فبدلا من اقتلاع الكروم وهي في عز عطائها، كان عليه أن يقيم مصنعا ينتج النبيذ ويبيعه لفرنسا نفسها بعد أن ظلت تشتري العنب بسعر رخيص وتُعتّقه وتصدّره باسمها، وسيكون النبيذ مصدر دخل قومي مستمر لا يقل عن البترول والغاز، وكان تفادى تعطيل الإنتاج الزراعي لتلك الأراضي الشاسعة سنوات حتى أثمرت الأشجار المثمرة.

ولكن: هل كان مشروع الأخير بومدين سيشكل حلا عقلا؟ وهل كانت جماعات التطرف الظلامي ستغفل فكرا حسابيا وجماليا ومحق الربح والمساواة لو تجاهر الجزائر أو تعلمنه أم كانت ستتخذ من هذا

فرصة أخرى لمزيد من توحشها وهمجيتها في ذبح الأبرياء؟ وأكثر ما فعلت يوم قتلت قرى بأكملها وسبت نساءها ولم ترحم أطفالها وشيوخها لمجرد مشاركتهم في الانتخابات ، ونشرت العنف الدموي والإرهاب؟ .

نصل جبال الأوراس ، نقف على قمة منها وعند حافة غابة كثيفة متشابكة من السنديان والبلوط والسرو والخروب ، القرود النسانيس تقف على حافة سور يحمي السيارات من الانزلاق في أودية سحيقة ، انطلقت القرود الحمر مصاحبة الزوار والسياح ، تخطف وتلتهم ما تطاله من موز ، لم تلتفت لتحذير من خطرها في لوحة معدنية كبيرة زُرعت في الطريق . تتوقف سيارات المصطافين والمتنزهين يطعم الصغار النسانيس ويفرحون ، كانت مناطق الجزائر ما زالت آمنة للتجول قبل أن يعصف بها الإرهاب ، ويستمتع الناس من أي منتزه أو أشجار ملتفة ، حتى في العاصمة ، تحرك السياح تميز نشاطاً وتنقل بلا تعب .

في زيارتي الثانية للجزائر هبطت الطائرة في مطار عنابه .. يقبل البحر قدمي الجبال وتلتقي أمواجه الخضراء غاباتها ، وتلمس الشواطئ مبتهجة على هضاب ودع وتصعد في أعالي القمة الطويلة حين تهبط الحرارة إلى ما دون الصفر .

ننتقل بطائرة صغيرة إلى الصحراء ومعسكر تبسة .

كنا فريقا تلفزيونيا نبحث عن الأسرى الفلسطينيين المغاربة في

تبادل الأسرى مع إسرائيل ، وقد استضافتهم الجزائر إلى حين .

انتدبني أبو الزعيم في القطار متوجها إلى المعسكر نفسه لملاقاة المحررين ، خرجنا من الفندق مبكرين وبلا طعام ، والمصور يحمل بعض الفطائر والخبز الأبيض والأسود لفطورنا .. وشجّعني أبو الزعيم بصحبة ممثلنا ، كما طمأنني قصي ورجاء العلمي بمصير الأخبار لنا ، وسمعنا عن تأخير الإقلاع بسبب الأحوال الجوية . وتأكد أبو الزعيم أن موجة الضباب ستذهب كما أعلمه أحد رفاقه ، حاول ثنينا عن رحلة خطرة في طائرة صغيرة .. انتظرنا الطائرة .. وانسحب متهما إصرارنا بالجنون .

تلك المرة الأولى والأخيرة التي رأيته فيها ، كان وزوجته يتدثران بمعاطف صوف وفراء ، بينما الأسرى المحررون يرتجفون في ملابس رياضية خفيفة .

قضينا ليلة في معسكر تبسة نسجل أحلام الأسرى المحررين ، لم نأكل شيئا منذ الصباح فقد خرجنا في الخامسة لنلحق بطائرة ستقلع في السابعة . ولكنها تأخرت حتى الثانية عشرة لوصلناهم عصرا ، نتضور جوعا ونرتجف من البرد ، جاءونا بلبنة وزيتون وخبز .. وجلسنا نسجل ليلا في براكس معدني واسع هو كراج للسيارات العسكرية .. وحدثني المحررون عن مستقبل غامض مغلق بعد خروج المنظمات الفلسطينية من بيروت ، وذكريات المقاومة والاعتقال وحنينا للوطن والذين فيه ، تلك أحاديث رأيناها ونمت وحملتهم وقرّبت حزنهم

ليحتفلوا لعتيبهم (زنازينهم) .. وتدنت درجة الحرارة إلى ثمانية دون الصفر ، ليصبح الميكروفون قطعة جليد ثقيلة بين يدي لا أحتمل برودته ، وحين أحس المصورون الصربيون بأنني أرتعد ، عرض بعضهم جاكيتاتهم الخفيفة رغم معطفي الصوفي . كانت أجسادهم قد اعتادت برد الزنازين وقسوة الاعتقال والأسر .

قابلنا صلاح التميمي ، وكان مسؤولاً عن العربيين في المعسكر ويحيى مثلهم .. ويحسب للرجل أنه رفض أن يتركهم حتى تعبر أسرهم .. تأمين جوازات سفر واتصالهم بعائلاتهم وانتقالهم إلى حيث أهلهم أو دول تقبلهم .. وكان من بينهم تونسي أيضا .

وفي المعسكر التقيت فاطمة البرناوي وقضيت الليلة معها في كابينة صغيرة خُصصت لها ، ودعتنا في الصباح .

تترى صور من بطولات الجزائر كلما ذُكرت اسمها أو طافت بالخاطر ، كصورة الوزي إحدى مناضلات الثورة جميلة بوباشا ، تلك المرأة الفاتنة الجمال رقيقة الجسد التي رسمها بيكاسو في لوحته فكانت صورتها شهودا في مسيرته الفنية ولكنها أنحلته ، شاقة في ثورة بصيرة ، متأنقة أحلت ثورتها كل شيء ، لتعلنها من تحب ولبستها الثورة حين نهضت .. رأت البطلة ما لم أستطع تبينه حينها ، الإرهاب ، والارتداد إلى الظلمات بعنف وقسوة ، والاحتماء بالسلفية حين سكنت الأرض تحت أقدام شعب ثائر وانتصر ، وعليه أن يحميه بتأصيل ذاته فلم يحتمل كثيرون .. استشرى إرهاب مخيف بعماء

للأرياف واستباحه ، فانتصبت بطلة التحرير السامي على القادم الثقيل طرداه ، بينما أنا والقريل نتحسر على فرصتنا معها ، ونأسف حين لم تقاوم بطلة الليالي الثائرة حزنها وما قاسته ، وتطلب محبيها برحا لم يعرف سببه سواها .

هي رواية بطلة استنفذتها من حب لا يحد لوطن ضحت من أجله بكل شيء .

* * *

## غزة.... يتيمة الرباط

التقيت عزة .. نحيلة قصيرة وجسمها أصغر من الثالثة أو الرابعة عشرة عمرها الطفولي حين رأيتها ، كان ذلك في زيارتي الثالثة للمغرب عام ١٩٩٨ .

لم ألتفت إلى سنيها الصغيرة حين دخلتُ صالون التجميل في الفندق الفخم في الرباط .. راقبت العمل المتحلق ، تحمل الأدوات ، تنظف الكراسي بمناشفها ، ترتب ، تطلب القهوة ، وتكنس الأرض بعد قص الشعر

كنت أجيب عن أسئلة صاحبته الفضولية : من أي بلد أنا؟ ولماذا جئت ؟ وماذا أكتب؟ والأماكن والموضوعات التي أريد تصويرها .

ويتميز المغاربة من الجنسين بالقدرة جر الزبون إلى الحديث دون لف ولعب ، وبأنهم مصدر للأخبار .

تأتأتْ الصغيرة حين نهرتها صاحبة الصالون .. توبخها وتطلب منها أن تتوقف عن التلفت وتنتبه لعملها لتتعلم بسرعة ، كانت ما تزال تمسك بفرشاة يتساقط منها الماء والصابون ، وتلتقط بعصبية التشغيل عند المسألة مأخوذة بصمتها .. تصمت وتتابع ولا تكمل ما

بدأت ، والحوار مع القشطة وأنت مجلف الشعر ونلع رقصا ، فكل منا لا تسمع شيئا في هديره .

توقفتُ عند نقرة الصخرة ، مسحورا ، كأنني أسعف عجلا ليس على كركبها ، وتقع نظرات حسرا على بعضه من عينين واسعتين لا تشقاق غلاسيله فتصدو . . ويتحفظ قيمها إعجاب يطلبه الانكسار ، ويحيرني على الحسن في خصوصية طفلة .

قلت لنفسي إنها صغيرة تمشي أمومية الإعلام وبريقه ، ولا تدري متطلباته أو عناء كمعظم الشبان .

عرفت أن اسمها عزة .

الفتيات الصغيرة كبقية تتقبب الكوافيرة وإصرارها على أن تنتبه لعملها التعلم العشنة ، ويعلن تنظف فرشاة الشعر بعمق واضح .

يُطِلّ باب الصالون على ممر طويل يؤدي إلى المصاعد والغرف ، ويقابل المطعم المغربي للوجبات التقليدية ، البسطيلة الشهيرة بالحمام أو الدجاج أو السمك ، يُحضّر اللحم ويوضع بين الخبز المرقوق واللوز المحمص والسكر مع القرفة والبهارات والسمن ، وهي من أشهى الأكلات المغربية . . ويمكن مشاهدة ما يقدمه المطعم وموائد زبائنه من نوافذ زجاجية كبيرة تطل على الممر ، أو الداخل والخارج من صالون التجميل . . ويطل عند بابه مثال للباس المغربي التقليدي بلون القهوة والحناء العربي .

على يسار مدخل الفندق كافيتيريا واسعة تظللها الخضرة وتمنع

بالرواد في كل ساعة ، وعلى يساره وبيمينه أرتيزانات تبيع بعض الثياب والمصنوعات المغربية التقليدية . .

لمحت عزة مرات في نزولي وصعودي إلى الغرفة ، تقف على باب الصالون بقلق يميزها ولا تنطقه عين ، تتفحص ما حولها بفضول واندهاش ، ونظرة لا تستقر ، ودهشة تلحظ عالما غريبا لم تكن تعرف أنه موجود ، فرأت عيناك يبحثان مسألة ، فاحتضنت حقيبتها .

لا تبتسم عزة إلا لأمر ، ولا تشرب شيئا حين أدخل الصالون . . فقط تتابعني بنظرها مأخوذة ، كما كل شيء حولها .

كنت أنتظر الموافقة على حلقة تلفزيونية أحصل عليها كحصيلة إعلامية ، من الجهود الثقافية ، ومعي فريق العمل ، المخرج القطري عبد الصمد ومدير الإنتاج أحمد كاميرا والمصور رأفا ، وكنا نجتمع في الكافيتيريا كل صباح ننتظر إشارة لا تأتي ، ونشرب الشاي المغربي الشهير بالنعناع .

كنا قد أنهينا مهمة في تونس ، وتشارف مهمتنا في المغرب على الانتهاء ولم يتحقق حلمي بعد ، ويراودني تخطيط حلقة تشغلني باستضافة أندريه أزولاي المستشار المقرب من الملك الحسن الثاني على لقائنا ، وربما نصل إلى الجالية اليهودية المغربية عن طريقه .

صورنا المدينة ، وموضوعات أدبية وفنية مع كبار الكتاب والفنانين المغاربة ، منهم عبد الكريم غلاب المجاهد والمفكر والصحفي المغربي - ثم انتقلنا إلى الدار البيضاء للقاء الفرق المسرحية المتنوعة ، والطرب

للمطرب عبد الوهاب الدوكالي .

يستغرق الطريق بين الرباط والدار البيضاء ثلاث ساعات ونصف تقريبا ، على جانبيه كروم عنب عديدة ، أوراقها يانعة في بداية حزيران ، فالمغاربة لا يستعملونها في محشي ورق العنب كالمشارقة .

فلم يألف تدرج مائدتهم وقتها لأطباق غير خصوصيتها .

الدار البيضاء ككل الموانئ منفتحة أحضانها ، متحررة ثقافيا رغم الصبغة الإسلامية ، فيها نشأ وترعرع المسرح المغربي ، وانتعشت فرقه وعروضه ، وهي مدينة الكتاب والفنانين ، مفتوحة كميناء تلتقي بالحياة لكل العابرين فيها ، وترتفع فيها نسبة الفقر والغلاء ، فيعاني جيلها الشاب من تبعات الانفتاح ، ترشفه سلبا أو استغلالا تقريبا ..

تزيّن الشاطئ الغربي من الدار البيضاء بأكبر المساجد العربية ، مسجد الحسن الثاني يرقى بهيبة وجلال على شاطئ المحيط . اكتمل بناؤه عام ١٩٩٣ تجسيد معنى الآية القرآنية «وكان عرشه على الماء» .. شيدوا أساسا طويلا امتد في المحيط ، وبحكم طبيعة المنطقة ما يستعمل في البناء من الخرسانة المسلحة ، وعند نهايته ارتفعت المنارة لتتساوى مع علو مئذنته إلى ٢١٠ أمتار ، ومساحة قاعة الصلاة في مسجد الحسن الثاني ٩٠ ألف متر مربع ، وتتسع خمسة وعشرين ألف مصل ، أما باحاته الخارجية فتتسع لـ٨٠ ألفاً آخرين .

ألحق بالمسجد متحف كبير ، ويعتبر واحدا من أهم المتاحف

الإسلامية ، ويضم أنماط الحرف العربي الذي نسخ به القرآن ، وتراثا إسلاميا نادرا من المصاحف ، أصغرها ، وأكبرها وأقدمها . . . ويعج الكورنيش أمام المسجد مع المساء بأهل المدن البيضاء ، وهم يتنزهون ، ويستمتعون بأجمل منظر للغروب حين يختفي قرص الشمس البرتقالي متوهجا وراء المحيط ، ويسود شفق الأفق لفترة تعالقه .

لم يشوه هذا الصرح المعماري الرائع حين صورناه سوى كثرة المتسولين في باحاته ، واستوقفتني نسبة المتسولات والأطفال بينهم .

قابلنا عبد الوهاب الدوكالي في الطابق السابع عشر لبناية ارتبط اسمها به ، ويطل من شرفتها الرحبة على مدينته والمحيط ، كل ما في الشقة الكبيرة يذكر بماض شهير ونجاح لافت ، فالمطرب الشاب آنذاك حقق شهرة محلية وعربية ونال أكبر جائزة عالمية للغناء في الخمسينات ثم الستينات ، وهو أول من أطل بالأغنية المغربية على العالم العربي ، وظل نجما وحاضرا في حفلات الملك الحسن الثاني وفي بلاطه ، وقرّب من الملك الحسن الثاني تقديره العميق للموسيقى والطرب وتذوقهما ، ويقال بأنه هو نفسه كان عازفا ماهرا على العود ، وظل يقيم حفلات للمطربين الكبار في قصره يحضرها علية القوم والسفراء .

حقق الدوكالي شهرة عربية واسعة في بداية الستينات حين ذهب إلى مصر ، ومثّل في بعض الأفلام عربية ، فقد كان شابا وسيما

مرهوباً ، وصادق عبد الحليم حافظ ، ويلعب دوراً مع سفارته في إيصال رسالة العندليب إلى الملك الحسن الثاني ليرفع المنع عنه في الإذاعات المغربية ، ويسمح له بزيارة المغرب والغناء فيها . فقد اتهم عبد الحليم بمحاباة الجزائر والغناء لها والتطبيل على مسألة الحدود وتنازع ملكية الصحراء ، وهي القضية التي ما زالت عالقة بين البلدين حتى اليوم ٢٠٠٩ . ولقد دعا الملك عبد الحليم حافظ إثر تلك الرسالة التي كتب حليم فيها أنه فنان لا سياسي ، وأن الوشاة قالوا عنه ما لم يقل .

غنى العندليب عبد الحليم حافظ بصوته الساحر في بلاط الحسن الثاني ، ثم أصبح نديماً شبه حاضر في بلاطه ومناسبات المغرب ، وأغدق الملك عليه الكثير إعجاباً بصوته وفنه .

هنا الرباط تنتظر «اللقطة التلفزيونية» التي جئت من أجلها . أردت إثبات التسامح والتعايش وقبول الآخر في المجتمعات الإسلامية المالكة ، باعتبار أن وضع ومكانة يهود المغرب شاهد لا يُنتقص ، فهم يحظون بالرعاية الرسمية حتى وصلوا للمراتب العليا ، وبالقبول الشعبي حيث يعيشون بحسن الجوار مع المسلمين .

طلبت من خلال سفارة قطر في المغرب تسجيل لقاء تلفزيوني مع مستشار الملك أندريه أزولاي ، فموقعه يدلل على المكانة التي تحظى بها الجالية اليهودية .

يتسلل الترقب في انتظار ما لا يأتي . . وتمر الأيام تباعاً ، والإلحاح

يحسب أنها بلا عمل ، وأنا لا أستطيع لقاء يهودي واحد تعبر الرباط .

تجول وتمتع بمناظر مقاطع من معالم المدينة وأسوارها وآثارها ، صومعة حسان بن ثابت ، وقد بقيت مشققة شاهدا على رغبة السلطان يعقوب المنصور الموحدي في بناء المسجد الأكبر في عصره ، كان طوله ١٨٠ مترا وعرضه ١٤٠ مترا وترتفع مئذنته إلى ٤٤ مترا ، ولكن البناء توقف بموت السلطان ، ثم ضرب زلزال كبير منطقة الرباط فتهدم ولم يبق منه إلا المئذنة شاهدا على ما في النيات والقلوب .

وتشتهر المغرب بطرز عمارتها ، ويوضح الأثر الإسلامي . ومن أجملها ضريح الملك محمد الخامس في الرباط حيث جمع طرزا إسلامية عدة ، وهو تحفة معمارية رائعة تشهد على مهارة الفن المغربي ، ويغطي خشب الأرز المنقوش بالزليج والمستورد من لبنان السقوف والجدران ، وتكتسي أرضيته بالسجاد التقليدي الملونة بألوان ورسوم يبرع فيها الصناع المغاربة ، وكتبت الآيات القرآنية على الجدران بخط الزخرفة بأناقة عالية ، ويعد الضريح مثالا عاليا من الفكر الحكيم على ممر الساعة .

تقع مدينة الرباط على نهر أبي الرقراق ، وقد أصبحت عاصمة للمغرب بدلا من فاس في عام ١٩١٢ ، وتتكون من سلا والرباط ويفصلهما النهر .

عرفت سلا قديما بأنها مدينة القراصنة وارتبطت بهم ، فهي

شريط يابس بين ساحلين ، تطل على البحر المحيط كما يسميه ، ويفصلها نهر أبي رقراق عن الرباط ، أقيم على مائه جسر تمشي منه وسماسرة الرباط . . وقد روع قراصنة سلا سفن أوروبا ، يتصيدونها ويختفون على ضفتي النهر وبين كثافة الأشجار ليصعب ملاحقتهم إلا ركبانا ، وإذا تجرأ أحد على دخول منطقتهم راجلا انقض عليه القراصنة وذبحوه .

اشتكت دول أوروبا إلى حكام المغرب ترويعهم للسفن ، فحارب مولاي الرشيد ومن بعده المولى إسماعيل القراصنة وهزمهم ، وبنى سورا من جهة البحر حول سلا يعوق هروبهم لو هاجموا السفن ، فتحولوا إلى زراعة الأرض وما زالوا .

بنى الحاكم يعقوب المنصور مدينة الرباط أواسط القرن الثاني عشر وسماها «رباط الفتح» ، فهي مكان تجمع فيه المجاهدون للقتال شبيهة بالرابطة البربرية ، يربطون خيولهم ويتكاتفون على الجهاد ويتعاهدون أن يشدهم رباطه أو وثاقه .

يحيط بالعاصمة القديمة سوران ، الموحدي والأندلسي ، ويعلو السور الموحدي الخماسي الأضلاع عشرون برجا لرقابة الحشود من الغارات والغزاة ، وجعلوا للمدينة ثلاث بوابات كبيرة أجملها الباب المقابل للسور .

يقودنا «باب الأوداية» الحجري عبر أدراج واسعة وصغيرة إلى سكن بناه الرباط حكام الزيني . . آثار تنعكس عن حياة أسرة حكمت

للحرب في العصور الوسيطة .. على شمال سور «القلعة»، وهو حيث شباكه ينزل به الحجاج والزوار . ثم تتابع بوابة السور العتيق من أربع مجموعات معمارية متباينة كانت سكنا للأسرة الحاكمة ، ثم مستودعا ، وتتميز بقبابها المشطورة ، وأشهرها قبة السلطان في الصحن ، وقبة تتوجه شمس الضحى ، وعلى طرفها الجنوبي أقيم الحمام الشهير من أربع غرف واسعة ، الأولى لخلع الملابس ، والثانية للماء البارد ، والثالثة للعلق والرابعة للساخن (جاكوزي وسونا تلك العصر) ويميز قباب الحمام أنها نصف دائرة فقط .

رأيتها هناك .

عزة ... وحيث لم أتوقع .

عند طرف السور القصي لباب الأوجاية المطل على المدينة .

وهالني ما رأيت .

انسحبت من بين شابين منشغلين بمحطاتها ويتحسسان بها لحظة رأتني ، انسلت من بينهما واندفعت نحوي بسرعة ولهفة ، وسلمت علي بإقبال استهجنت حرارته ، فلست سوى زبونة عابرة للصالون تتدرب فيه . ولم تحيني ولو مرة في الفندق أو الصالون

انفلت الشابان خارجين من المكان حين ركضت إلينا وبسرعة مريبة فزادت شكوكي .

تلك التي كانت تتملصها وتحرجت مني ، وربما تعجبت أن أكتشف سرا رأيت في مكان عملها ، فأرادت تظهر لهفة ليست من

علاقتها معي في الفندق .

كرهتُ طفلةً بين شابين تسيل للمصير في مكان عال ووضع سلما سريعا ، والتقتين كأنّا يحيطانها أو يهمسان بإمساكها ، ثم ينسحبان مسرعين حين وصلنا . . وكرهتُ فيها طفلةً صغيرة تبكر إلي هنا .

كنت قد سمعت ورأيت قصصا عجيبة عن فتيات صغيرات يصحبن الشباب والسياح . وقد واجهت المغرب مشكلة الأمهات العازبات صغيرات السن من غير زواج . وعزة صغيرة وحيدة بين شابين في حديقة لم يكن فيها سواهم حين وصلنا .

لم أبد اهتماما بوصفتها ، ولم ألتفت إليها وهي تلحق بي إلى المسلم الأثري وتقول مستفتكي . دفعت تحيتها بلا تشجيع . . ولم أتوقف طويلا عند خيبة أمل بادية تسحلت وجهها ، فهي فاقة بطبعها ، ولكني استهجنت المتكثيرة والصلاة بطلها من غشة بكلماة تصرفي ، فقط لأنني لم أستجب لمحاولتها مرافقتنا والبقاء معنا في تشعبنا ، ولما لا أعرف سوى اسمها ، وكرهت تصرفا منها .

تستغرب الزملاء انتقامها . . أتذكرها حين سألوني عنها ، ولم أشر إلى ما رأيته .

امتعضت عزة . وأكملنا عملنا .

شغلني تعثر الوصول إلى حارة اليهود في المغرب من التفكير بعزة أو نظرتها الغاضبة وخيبة أملها ، فقد أربكنا وصول رد المستشار .

ورفض المدير أبو زولاي المستشار الأول والأقرب من الملك الحسن

الثاني الحديث عن يهوديته ، فهو مغربي فقط ولا يقبل مثل هذا التصنيف ، وإذا كنت أريد الحديث عن اليهود فلأبحث عنهم بنفسي فهو غير معني بهذا » .

أسقط في يدي

خاصة أننا ، والحس بالقهر وقلة الحيلة ، وقد عولت كثيرا على لقاء المستشار لعله يفتح أبوابا مغلقة .

صار لزاما أن نبحث عن اليهود بأنفسنا ، عن إبرة في كومة قش ، قررنا التوجه إلى فاس . . نصورها ، ونلتقي فيها الباقين ثم نعود إلى الرباط قبل أن نترك المغرب ، ولم نعثر على جالية يهودية صغيرة نلتقيها وإن بدا أملا ضعيفا . . فالجالية الأكبر تسكن الدار البيضاء ، ولم نستطع الوصول إليها . فكيف سنعثر عليهم في فاس؟

تقلص عدد اليهود المغاربة من ربع مليون إلى أربعة آلاف فقط ، هاجر معظمهم طواعية إلى إسرائيل بعد حرب ١٩٦٧ ، والمغرب من الدول العربية القليلة التي لم تطرد اليهود منها بعد قيام إسرائيل ، ولكن كثيرا منهم هاجر إلى أوروبا أو أمريكا .

اتفقنا على تصوير فاس ، وفي طريقنا نمر بمكناس فنصور آثارها ، ثم نجرب حظنا في العثور على اليهود .

توكلنا على الله وعرجنا مكناس .

كان سائقنا للتحصيل متقنا .

والطريق إلى فاس ممتع ، تبرز ثم تختفي على جانبيه غابات

البلاط وأشجار الفاكهة والمسبح .

تأسست فاس عاصمة الدولة الإدريسية في المغرب عام ٨٠٨ م ، واحتفلت عام ٢٠٠٨ بعيد ميلادها الـ ١٢٠٠ وتشتمل على ثلاثة أقسام ، فاس البالي (القديمة) وفاس الجديد ثم المدينة الجديدة . اعتبرتها اليونسكو عام ١٩٨١ كأحد مواقع التراث العالمي ، وهي أكبر مدينة في العالم خالية من السيارات ، فتشتمل على المتاهات صورها الضيق طرقاتها وأبوابها ، وتكتظ بالبشر والبغال والعربات الصغيرة وسيلة النقل في حارات مرصوفة بالحجر تصل بروعة الزمن .

تتبدى للداخل من أحد أبواب سورها العتيق مدينة قاومت التاريخ بعراقتها ، ولكن رائحة روث الدواب وبغال العربات تعيد الزائر إلى أزقة التاريخ ورائحته النتنة .

وصلنا مع الظهيرة عصراً .. لم أتصور جمال فندق جنان فاس في المدينة القديمة حتى وصلته ، كتحفة فنية رائعة بقاعاته الواسعة وديكوراته وأثاثه ، استرجعت فيه الطرز الأندلسية بمهارة الصانع المغربي ، تجمع الفنون الإسلامية ، كل قاعة تجسد طرازاً وحقبة وفناً في أقواسها وأعمدتها ونقوش بلاطها وزواياها جدرانها وسقفها وستائرها وسجادها وثرياتها المصنوعة من الكريستال أو النحاس والزجاج الملون .

وجميع مطاعم الفندق تغلق مع الثالثة ، ولا طعام غير ما يقدم في الكوفي شوب . والصديق يصر على وجبة مغربية تقليدية تسد

جوعهم ، وبين المدينة القديمة .

تأكدت من شدة إلحاح الزملاء أن الرجل لا يحتمل الجوع ، ولهذا قالوا إن الطريق إلى قلوب الرجال تبدأ من معدتهم ، ويصر الزملاء على إيجاد مطعم في فاس البالي مهما طال البحث .

نمر بالمدينة الجديدة ، حديثة التخطيط والعمران ، شوارعها واسعة منتظمة ، تركت فيها مساحات خضراء ممتدة ، ومبانيها شاهقة وكبيرة .

نصل السور الحجري القديم ، يلتف حول المدينة بأبوابه الثمانية .. ندخل من باب المشرح ، نمشي ونسأل عن مطعم تدلوننا ، نوقف السيارة حيث أشاروا .. نطرق أبواب مطاعم فيردوننا بلطف ، كل مشغول بتحضير العشاء في فترة تمتد من الثالثة وحتى السادسة والنصف أو السابعة ، ولم يقبل مطعم واحد كسر العادة في مدينة تعج بأفواج السياح ممن يحتسبون أن جولتهم السياحية لن تكتمل إلا على مائدة تقليدية في مطاعم فاس البالي .

ودع الزملاء شعارهم ولم يتنازلوا عنه "لا يأس مع الجوع" .

نسأل ونلحق الوصف فترفضنا أربعة مطاعم بلطف وكياسة

يرفع الشباب شعارا جديدا ، لا يأس في وجبة تقليدية حتى لو تأخروا جوعا ومهما طال انتظارها ، وأقسموا أن لا عودة إلى همبرجر في الفندق مهما حصل .

نخرج أبوابا متلاصقة في سياق لعربة متصلة كسور . يطل أحدهم من الأول مختصرا ، ثم الثاني والأخير .

ولم يكن الباب الضيق القديم ينم عما خلفه ، ولم أصدق ما رأيت .. مطعما أنيقا واسعا تسوده النظافة ، تتدلى الثريات النحاسية الضخمة من سقفه المرتفع فوق كل مائدة ، بيت عريق من الطراز المغربي في بنائه وأثاثه ، وتدل مساحته الكبيرة على أنه كان سكنا لأسرة من طبقة اجتماعية مميزة ، فُتحت جدرانه الداخلية فصار استقبالا واسعا ، وألحقت على أطرافه حمامات حديثة مجهزة بالعطور الفرنسية التقليدية ، والصابون النابلسي ، والزيوت والمناشف الأنيقة المطرزة .

جدران المطعم وسقفه مزيج من الفسيفساء المغربي المنقوش بجمالية ومطعمة بالخشب الأرابيسك ، وتتوسطه نافورة كبيرة .. وثمة في منتصف النافورة ، فيها أربعة أفيال تماثيل تتدفق من فيه تمتد إليها من رأسي الصبية في لوحات طولها سحرت كليوبترا .

مقاعد المطعم حول الموائد متناسقة مغربية الطراز من الخشب «الأرابيسك» . وتتوسطها طاولات كبيرة من النحاس المزخرف تستند على قوائم خشبية .

تستعجل النادل ، فقال يؤكد أن الوجبة شبه جاهزة ، فقط .. قليل من الصبر .

تشرب الشاي المغربي من النعناع وتنتظر ، يهدأ الزملاء بحلاوة السكر ، ثم يتناوبون حيلة لوم جديدة لأن أحدا منهم لم يتناول فطوره بعد فيما لا أكف من يحثني عن الصمود ، وأركض وراء سراب بعيد

القتال.. ولا يمنعني تذكيرهم بأنني مثلهم لم أتناول شيئاً منذ الصباح، وازداد اقتناعاً أن احتمال النساء أكبر من الرجال حتى في الجوع، فقد بدأ الفرج «الزاد» على الوجبة منذ توقفنا في مكتبي تصور جامعها وزوايا القصور وسورها العتيق، ومنذ طفولتها وكل منهم يؤكد لي أنه جائع من طوله، من الجوع.

نلح ونتحدى السائق ونتذمر منذ طال انتظارنا ساعة، وهو يتمهلنا حتى ضاق بالعرب تخالف سمتهم، ولكنهم لا يمهلونه - وبدأ يضيق بإلحاحنا.

وتساءلت بهمس: هل أراد استدراجنا ليجبرنا على الانتظار؟ أم أشفق علينا ونحن كالأيتام الحائرين الجوعى تُسد في وجوهنا أبواب المطاعم؟

بل كان رضا الله ودعاء الوالدين.

نصعد وننحدر ونتمتع بجمال المكان حين دخل فجأة، بلباسه المغربي التقليدي وطربوشه، ربع القامة أبيض البشرة لامع الوجه عليه الجلسة، تلمع بعينيه مستغرباً وجود زوار في مطعم مغلق للتحضير.. تفقد المكان ببطء ثم مشى إلينا.

جلس على طاولتنا مرحباً.. والفرح بملامحه يرافقه عطر الورد، ويلي شديد المتانة يهمهمه.. تتبادل نظراته حيرى تستنكر عقال زوار لا يعرفنا

يسألنا من نحن؟

هرع الطاهي يعتذر عن تعجلنا ، ويوضح أنه أراد فقط مساعدتنا الغرباء جائعين .

- المراكشي علوي إدريس

هو صاحب المكان ، ويعمل دليلا سياحيا في وزارة السياحة بجانب امتلاكه المطعم .

فلسنا أجانب .

والمراكشي ودود خفيض الصوت ، هادئ النبرات قلما ينفعل . يشيع وجهه بسمة بادية ، ويروي قصة تحويل بيت عائلته من أثر طلل بال إلى مطعم .

حدثناه عن مهمتنا فأبدى تعاونه من طرف ، وذكرنا بمواقع جيدة لتصويرها أصلا ، واستعداده لمرافقتنا في جولة الغد .

سنتعهد بعض لوازمنا .

والطعام المغربي من أشهى الموائد العربية بخصوصيته وتفرده ، الكسكسي والبسطيلة واللحم بالزيتون واللحم بالبرقوق المجفف والطواجين ، ولأننا متلهفون ومتعطشون من الشغل ، طلبنا أطباقا فاقت من جوعنا .

واتفقت مع المراكشي عند رحيلي .

أخبرته عما أثرناه في مكناس فأبدى استحسانا غير سياحي مطلع .

أحدثه عن مهمة سأخبره أنني فشلت إن عدت دونها ، ومن

موقف المستشار أندريه أزولاي ووصفه القاتم .

قال بثقة وبصوته الهادئ الرزين وبعربية فصحى لا يتكلم سواها :

- أنا أحسن لك اليهود .. في أي شغل تعملون؟

قلت لنفسي إنما هو طبل سياسي وصاحب مطعم ، وكلا الصنفين يتطلب كياسة ولطفا ، وهذا كلام رجل متعاطف مع حيرتنا وطبل سياسي يبيع لنا الأوهام .

- في التاسعة صباحا سأكون مع اليهود في جو محتفل .

أجهزنا البلدي الطاجين عطف على حيرتنا ، وتستعد للخروج ، والمراكشي يصر على وعد منا بالعودة بعد العشاء ، لنستمتع بجمال المطعم ليلا ، وبحوره ، وغناء الموشحات والرقص والعزف على العود .. وهي دعوة مجانية ، فالغناء والرقص جزء من وجبة العشاء ، ونحن لم نستوف حقنا حين دفعنا ثمن الطعام دون أن نستمتع بأي منهما .

نخرج عندما وفود السياح تتوافد إلى المطعم ، يرحب المراكشي بالقادمين بالفرنسية والإنجليزية بود وبساطة ، ويتناول مع عازف العود ومطرب الموشحات ، نودعه شاكرين وما زال يؤكد على عودتنا لاستيفاء حقنا ، ثم على لقائنا في الصباح .

تنشغل بتصوير مدينة فاس في الليل والتنقل بين أقسامها الثلاثة .

نحمل من البقالي ، قطع الجسد وبخور من سوق العطارين ، وأكياس من نباتات الشفوية النادرة اليابسة ، وأخرى لحلوة العشرح

ولأمراض الباطنة ، والأعشاب لتحضيرات الزكام ، وتوابل عطرية وزيوت نفاذة ورائحة عبقة للحمام المغربي الشهير ، وأعشاب لتجديد البشرة لتشربها النسوة فالركائب الطالبة المعتنية بالبشرة وتباع بالغرام ، ويحجز شبه معادن الفولاذ ، ومنه الزعفران ، والمشهور المغربي بتواضعه وتصغيره ، ثم زهور اللافندر والورد الجوري والريحان ، ويحور بالأشكال .

وتعرضت من بين أدوات الحمام المغربي والأولى مسرة إلى «الحكّاكة» ، وهي قطع من الألياف أو القماش لإزالة الجلد المتقشف أثناء الاستحمام ، وقد خلّفت فكرتها كثير من دور التجميل العالمية .

تتوالى الأسواق وتتصل في أزقة التطريح الحجري ، تصور سوق الحناء ، ومصدرها السودان وحوانيت العطارين غرف صغيرة متصلة . مساحتها تتكدس حتى أبوابها . . وأوراق الحناء يابسة أو مسحوقة ، وعلب بلاستيك من مختلف الأحجام للجاهز منها . . وتتعالى شموع بألوان وأحجام بين أدوات حفل الحناء التقليدي في حفلات الزواج . ولا تستغني الغربيات عن الحناء في صبغ الشعر ، يخلطنه مسحوقها بالزيت وقشر الرمان للألوان الفاتحة ، وبالعرس وزيت الزيتون للون الأسود ، كما يستعملها العذارى في دباغة الجلود وصبغ العرقوب لألوانها وأثاثها ، كما يعتقدون بقدرتها على شفاء الحروق والجروح وقروح الفم .

لتدخل سوق العروس وتنتهي بسوق الجلود ويشتهر المغرب صناعة الملابس والأحذية والحقائب الجلدية الراقية . . تتعدد واتحة

الباخرة الضائعة ، وبشلالات الأجساد في أزقة التاريخ . نشرب عصير الفور ، ونحن نتحمّس للتقشف المتميز .. والشرب هي بلاد الفليز ، ومن مستوى تُصنع أطيب حلوياتهم ( كعب الغزال ) ، ومنافسها الأفضل من اللوزيات أو عجينة اللوز التي تشتهر بها دول أوروبا خاصة ألمانيا .

ونعود إلى الفندق منهكين .

يوقظني هاتف غرفتي .. ويخبرني موظف الاستقبال أن ضيوفي ينتظرون في بهو الفندق .

أسير في دهشتي التي لا أعرف أحدا في المدينة ، ولماذا أصلا يرغم الغرفة ، فيسألني عن اسمي ، ويؤكد أنهم يطلبونني أنا .. ثم أسمعه يحاول التفهم ، ويطلب منه أن يحدثني :

– أنا المراكشي الإدريسي ، صاحب المطعم وسمي إبراهيم الصباغ .. كما وعدتك بالأمس

أرتبك وأعتذر وأطلب مهلة لأستعد خلال نصف ساعة لأنني لم أستفق على حصول الموعد . ويقول بلطفه وكياسته إن الصباغ في عجلة لديه عمل ضروري ، ولا يمكنه أبدا أن يتأخر عن الطائرة عصرا .

خمسة قالها!! ودون تأخير!!

أستعد دون تفكير أو مماطلة ، فماذا أفعل بصباغ؟ وأية مصداقية له ليسحب عن كل ما في رأسي من أسئلة؟ وهو سيسرد معان لا مصداقية لأحكامه في مسائل شرعية أو سياسية تدور في ذهني ، وسيحدثني عن انطباعات شخصية فقط ، ولن يكفي كضيف واحد

في حلقة مدتها ساعة؟ ولا بد أن العراقشي طمع بما وعد الإنتاج به فيجلسني بصباغ ليحدثني عن تاريخ اليهود؟ وعلي أن أستبدل لقاء مستشار الملك بحديث من صباغ في فاس؟

هي خيبة أخرى تلازم هذه الحلقة .. أؤكد لنفسي .

أفكر بطريقة للاعتذار وأخشى بلا حماسة .

– ليرافقنا الصباغ حاخام الجالية اليهودية في المغرب .

أستدعي فريقنا ما زال ناعسا .

نسجل لقاء مع كليهما ، يروي الحاخام الصباغ تاريخ اليهود في المغرب وتطور التشريع واختلاف مذاهب الفرق اليهودية ومعتقداتهم وهجرتهم لدولة إسرائيل ، ويحكي العراقشي عن علاقة اليهود التاريخية بأهل المغرب ووجودهم في فاس وحسن الجوار مع المغاربة المسلمين القاطنين ، وعن أماكنهم وتراثهم .

يسبقنا الحاخام الصباغ ليفتح جالوته يقابلنا .

تصفق الحيرة .

كان يوم الهيلولة ، أي عيدا يهوديا دينيا ، تجتمع الجالية فيه قريبا من مدينة الصويرة ، المكان الأصلي ليهود المغرب بعد طردهم من الأندلس ، ويحتفلون بذكرى أحد أوليائهم «حاييم بنتو أو حاييم الصباغ ، يحضرون من الدار البيضاء والرباط والمدن إلى ضريحه للصلاة وتقديم النذور ، وزيارة الأضرحة عادة وطقس مغربي يمارسه المسلمون أيضا ، فهم يعتقدون بقدرة الأضرحة ويؤمنون بمعجزاتها .

ولديهم ضريح له قدرة تزويج العانس ، وآخر يضمن حب الزوج أو الحبيب ، وثالث له قدرة إنجاب الذكور .

أشكر الله .

صورنا احتفال اليهود بأبيهم حاييم بنتور .. في طرف حديقة كبيرة مسورة ومحتمي بها وعليها حراسة حكومية ، يرتفع ضريح الولي من حجر أبيض ناصع ، وفي وسط القبر الضخم فجوة لإشعال النار ، يصعدون إليه بدرجات قليلة ، ووضعت حوله الورود وتماثيل الزينة ، وأشجار الحديقة عتيقة وارفة ، ويحيطها سور مرتفع وبوابة حديدية ، وفي جدار الضريح أوراق قديمة وأخرى حديثة يكتبون فيها أمنيات وطلبات لمفاتيح شفاعة ولهم لتحقيقها ، وأسماء أبنائهم الغائبين أو من يحبون ، لتحل بركة الولي عليهم .

يطوف الحاخام الصباغ حوله فيرددونه ، ثم يفرغون صلواتهم وهم منتشون ، يفدون من جميع الأعمار بطيب منهم شباب العشرينات لعشقهم جيرالونه أي يحتفلون في الخارج خاصة فرنسا ، ومعظم الجالية اليهودية تتحدث الفرنسية والعبرية ، وقليل منهم من يعرف العربية باللهجة المغربية .

ورصوا كؤوس العصائر والطعام على كل الحاضرين فأكلنا معهم ، وقضوا بضع ساعات يتسامرون ويتبادلون الأحاديث وأخبارهم .. سجلت المقابلات مع عدد منهم .. الطبيب الأخصائي للقلبية جيليب جوبالي ، خرج أجداده من الأندلس يوم طرد الإسبان العرب واليهود

من بلادهم على مضض ، فكانت الغربة سلاحهم لقهرها .. درس الطب في فرنسا ، وهو لا يتكلم العربية حتى الفصحى المحكية ، لكنه أكد أن التسامح الإسلامي ساعده في أن يكون طبيبا للأطباء ، وإيطاليا أكد الكنفدرالي ، قال متفاخرا . ولكنه تضايق جدا حين سألته إن كان يتبع الشرع في تعامله مع زوجته الفاسية البليونة والمرحومة السويدية؟ وبلا تردد قال نعم . فهو يعاملها حسب الشرع حين تحيض ، لا يقترب من مخدعها ، ولا ينام في فراشها ، ولا تلمس شيئا في بيتها لأنها نجسة . وحين سألت زوجته إن كان ذلك يضايقها ، أجابت (إنه الشرع) .

سجلت لقاء آخر مع الدكتور (حييم) وهو طبيب عام وأطفال ورئيس الجالية اليهودية في فاس وطبيب أطباء فاس ونواحيها ، فروى قصة وصوله واعتباره طبيبا ، ما يعكس التسامح العميق بين أطباء المغرب .

عند زيارة ضريح الولي إذ تفرج السوسيولوجي .. رجل قصير القامة في أواخر الخمسين ، فاجأني بلغته العربية بلهجة أهل القدس ، قال إنه هاجر إلى فلسطين من بولونيا صغيرا ، ويعمل طاهيا في الكيبوتس ، ويأتي لزيارة ضريح الولي والاحتفال بالهيلولة في المغرب كل عام . قلت إنني ولدت هناك ولكنني لا أملك حق الإقامة ، فصمت وظل يهز كتفيه (سي لا في c'est la vie)) ... إنها الحياة .

هكذا بدأت تكتمل ملامح حلقة ظننت أنها مستحيلة .

وسأكملها بتصوير الحي اليهودي بجانب القصر الملكي في فاس .

حين طرد الإسبان العرب واليهود من الأندلس فروا إلى المغرب القريبة وسكنوها ، وقد أقام الملك محمد الرابع حيا لليهود يبدأ من سور قصره في فاس العاصمة ، ليكونوا في حماه ثم في رعاية الأسرة العلوية المالكة .. ولكن كثيرا منهم اختار الهجرة إلى إسرائيل بعد قيامها ، باعوا بيوتهم فتحولت إلى متاجر ومصانع تقليدية ، وتلك تسمى جادة (حارة) اليهود .. وهناك جالية صغيرة منهم تسكن مدينة الصويرة ، وهي مدينة سكنها أجدادهم وتخصصوا وبرعوا في صناعة الأسرّة والأثاث من الخشب والنحاس ، وما زال بعضه يحمل نقوشهم ونجمة داود .. وقد عاد أحفاد كثير من يهود الصويرة من إسرائيل للبحث عن ممتلكاتهم وشرائها من جديد ، أو امتلاك عقار آخر في مدينة حضنت أسلافهم .

نلتقي والمراكشي عند الزاوية الزرقاء .

تنتشر الزوايا الصوفية .. عشرات من الطرق والزوايا في فاس ومراكش ، تلج زاوية التيجاني ، فالشاذلية ، يتحلق المريدون وأصحاب الحاجات حول كل ضريح ، ويصحبني المراكشي ليبين لنا سطوته واحترامه .. نساء مع أطفالهن جئن للزيارة أو الدعاء أو وفاء النذر ، ورجال في حلقات يقرأون ويترنحون في تمايل واضح .

وفاس هي أحد أهم مراكز الصوفية .. فرحلت الصوفية المتسامحة

في الغرب عن طريق الحجاج المالكيين من بيت المقدس ، وتشكلت كمذهب في العهد الموحدي في القرن الثالث عشر الميلادي ، وحكمت البلاد كنظام منذ القرن الخامس عشر . . وقد أسهمت الصوفية في ظاهرة التسامح مع الآخر والانفتاح والوسطية والاعتدال في ظل الاختلاف رغم التدين والهوية الإسلامية .

تقوم الصوفية على الزهد في الدنيا والترفع عن مباهجها وابتغاء وجه الله والاتحاد بالروح ، ثم الاعتكاف والاعتماد على الشيخ في التزود بالإيمان . ولكن «الشيخ» في الصوفية سلاح لتشديد قولها ، وباعتقادهم أن فهم النص والحديث وإعمال العقل ليس حصرا على الشيخ . . بينما يعتقد تابعو الفرق بأن من لا شيخ له فشيخه الشيطان . وأشهر المتصوفين المغاربة هو الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي ، وقد انتقل بعلمه إلى بلاد الشام ، ونشر مذهبه وطريقته حتى توفي ودفن في دمشق .

تسير في طرق مشابهة مفكرو الإسلام ومتصوفوه .

تمثل جامع القرويين الشهير ، بناه فاطمة الفهرية في «مدينة القرويين» ، وأنفقت عليه كل ما تملك تقربا من الله عام ٨٥٩ م ، وحملت أختها مريم حذوها فبنت جامعها في «مدينة أهل الأندلس» . . وتوسع جامع القرويين على مراحل ، بدأ بتلك الحكام الزناتيون ثم المرابطون فامتد على ثلاثة آلاف متر مربع ، وفيه صحن صمم على طراز صحن الأسود في قصر الحمراء في غرناطة . . يحتضن ماء الوضوء

من أثرياء أسرة مهاجرة أصلها [illegible]. ويتميز المسجد بصومعته المربعة، وهي أقدم منارة مربعة في المغرب العربي، وبطراز معماري أندلسي يزخر بالقباب والأقواس، وتزدان جدرانه بالآيات القرآنية والأدعية، أما الحكام الموحدون فهم من علقوا الثريا الكبرى في سقفه وما زالت.. وفي باحاته عدد من الساعات الرملية والشمسية لضبط مواقيت الصلاة، وألحقت بالمسجد جامعة القرويين، وقد دخلت كتاب جينيس للأرقام القياسية كأقدم جامعة في العالم ما زالت تعمل.

درس في جامع القرويين عدد من كبار العلماء، البابا سيلفستر الثاني الذي أصبح بابا الفاتيكان من ٩٩٩-١٠٠٣، وهو الذي نقل الأرقام العربية إلى أوروبا لتصبح أرقامهم، بينما تحول العرب إلى الأرقام الهندية لتصير أرقام العربية. ومن طلابه أيضاً ابن خلدون مؤسس علم الاجتماع، وموسى بن ميمون والشيخ ابن عربي وكثيرون.

يحضر المراكشي اللباس الأبيض التقليدي للرجال فأرتديه فوق ثيابي. ندخل الجامع بصحبة المراكشي ونبدأ العمل.

يتحلق الباحثون والطلاب حول شيوخهم في شبه دائرة، بينما يجلس هو مستنداً إلى سارية من المسجد العتيق، يشرح ويفسر، فيناقشون أو يسألونه.

في هذا الجامع درس ابن الشيخ الفيلسوف الرئيس موسى بن

ميمون اليهودي القرطبي ، وكان من أعظم الأطباء في عصره ، ولكنه غادر الأندلس ليصبح طبيب القائد صلاح الدين الأيوبي في بلاد الشام .

يضيق الغارسون بحركتنا ، فنعمل بسرعة في افتراشهم ونخرج .

يودع المراكشي ، ينسل الفريق إلى شقة الحاخام أبراهام الصباغ في منطقة فاس الجديد كل على أفراد البلدة أنهم بحثهم ومستقبلهم ، والقرافة ارتبطت باليهود من قديم ، وشهيرا اليهود السمرة في عمل الأسمنة وكشف الطالع في فلسطين معروفة ، واليهود السمرة هم فئة دينية ضد قيام دولة إسرائيل ، وهم منبوذون من حكومتها .

وزع علينا الحاخام الصباغ ورقة رقية يهودية مشهورة مكتوبة بالعبرية ، وفي وسطها كف بجلب الحظ ومنع الحسد .

نعود في الصباح إلى الرباط .

كنت سعيدا ولما أدخل صالون التجميل فجلست عزة وأشاحت بوجهيهما في غضب وهرولت إلى المطبخ حين رأتني ، ورفضت أن تساعد الكوافيرة ، بل وتعالى استجابيها .

هذه الطفلة تحيرني ، تغضب مني ولا تطيق النظر إلى وجهي كأنني من يأتي لحلها .

تقول صاحبة الصالون شيري ولا زالت عزة تهمهم بما لا أدري .

تسألني الكوافيرة فجأة :

- لماذا فعلت هذا بعزة في يوم الأومانة؟ . عزة يتيمة ، ماتت

والدها وتركها مع إخوانها الخمسة لأم لا تعمل ، فأحزنتها من الغربة رغم تعودها السهر على إعالتهم . . يوم رأيتها في الحديقة ركضت لتحتمي بك ، فقد شعرت أن الأمر عام وأغلقت الصالون لم تأمرك ، وليس لها مكان تذهب إليه ، فهامت في الحديقة تنتظر عودتي . وكان الشابان يقابلانها ويحاولان إمساكها حين وصلتم . . فأفلتها ويومك منعها وكذلك أنكرتها .

- والكتبي .

لم أستطع أن أكمل . . أنا والكاميرا كدنا نضيع طفلة ، حين أغلقت الصالون دون أن تتركها فيه ، وأنا حين لم أتعب لمتابعتها وتصورتها بريئة ظاهر الأمور ، وحاسبتها على اختلافي وشكي .

أستعيد مشاهد لم أتبين حقيقتها في انشغالي بطفلة تافهة .

كيف لم أتأمل في لهجة طفلة جاءت إليّ ؟ كان الشابان يحاولان إمساكها والتحرش بها في مكان خالٍ من الزوار ظهراً ، وقد تعرفنا عليهما الشابان عند السور وكانا يطاردان بها حين وصلنا . ولكنها انسلت من بينهما وهي لا تصدق أنها نجت ، وهذا سر لهفتها وإقبالها عليّ . فقد اعتقدت أن حضوري مع الفريق سبب خلاصها ونجاتها . ولهذا انسحب الشابان بسرعة مريبة حين ركضت إلى هنا بصلة لنا بها . كانت تحتمي بي بينما أظن بها الظنون وهذا ما يقلقها مني . ( إن بعض الظن إثم ) . .

حرة طفلة لم تجد مكاناً يؤويها والصالون مغلق ، وربما لم يكن

لديها ما تأكله، أو ثمن مواصلات إلى منزلها - والحديقة الأثرية قريبة من الفندق، فالتجأت إليها .

ينتابني شعوري بالإثم وأحاول التكفير عن ظني وحماقتي، ويسأل الحاضرين أحاول مداواة جرح الكرامة والخذلان بحملي لمال ليعوّض عن تعذيب النفس وجرحها .

قبلت عزة على مضض وبعد إلحاح طويل - - ترددت، ثم عاودتها حاجتها، ولكنها ظلت غاضبة وتشيح عني .

بحثت في اليوم التالي لأعتذر لها . - كان الصالون مغلقاً . . فسافرتُ وفي حسرة لأنني لم أشرح لتلك الصغيرة ملابسات ما حدث .

لأذكر عزة كلما تذكرت الرباط، وتراءت حين أقرأ عن ظاهرة الأمهات العازبات في المغرب، تضطرهن الحاجة والجهل إلى الخطأ، وأستعيد صورة طفلة تركض إلينا فأتأمل بها الفندق، لماذا هي بجنسة تحتمي بالحديقة العامة وهي، ومعها شابان يتحرشان بها وكانا يطاردانها حين سألتنا عناية الله . . ويخزني ضميري كلما قرأت عن الفقر والفساد، ومن استغلال قلة أو الاعتداء عليها، وأدعو الله أن يكون قد جنب عزة كل مكروه .

ولا أدري أين أصبحت عزة في قسوة الحياة، ولكن صورتها وهي تركض بلهفتها إلى حيث تؤلم الذاكرة . . وكلما ذكرت المغرب .

* * *

# راكبة من الدرجة الأولى

يهم ضابط مطار القاهرة عليه العراقي بتدقيق وتقليب جواز سفري وتذكرة الطائرة عند مدخل المسافرين حين حلت ضجة خلفنا . . التفت فإذا بشاب . . كانت امرأة تحتج على حامل الحقائب غاضبة ، وتطالبه وتمنعه من جر عربة حقائبها ، وهو حائر معها .

كان الوقت قد تجاوز الثانية بعد الظهر بقليل .

ابتسم الضابط إذ فهم . . تابع تفحصهما بينما أوراقي في يده . وأعادها .

حائرة وغاضبة وترفض التحول أو التقدم .

مسنة في نهاية الخمسينات ، ترتدي ثياباً طويلة ، وتغطي رأسها بمنديل ، وتؤكد لحامل الحقائب أنها درجة أولى ، وهو مستغرب لأن مسارها ليس من هنا ، بل من مدخل خاص . وعليه أن يسأل ويأخذها إليه ، وتحاول دفع العربة لتخرج لأنه (فقط) لن تدخل مع الناس ، فالدرجة الأولى لها وحدتها ، وهو يسحبها إلى مدخل (العاديين) ، ولن تتزحزح قبل أن يذهب بها إلى المدخل (الثاني) الصحيح .

والمسافر حائر مثلها ، ويحاول أن يشرح لها فلا تسمع ، ويؤكد أن

سمعتها من هنا فترقص ، ويقسم على ما يقول لأنه يعرف أكثر ، تتشوق ، ويحاول إقناعها لتستعد لإصرار ، وتقبل بصبرها تحاول أن تفهم ، ولا تدري من تسأل .

يبتسم لها الضابط ويستفسر عما يزعجها .

يؤكد لها الضابط أن العامل على حق .

لا تقتنع السيدة رغم تأكيده ، وتهمهم لنفسها ، ليس الدرجة الأولى إنها ستدخل خلفها . يبتعد سير العامل ويتنقل بصره بين الضابط وامرأة متعبة تضيع عليه تفتيشها من راكب غيرها في ساحة تكتظ بالمسافرين .

يرجوها : يا خالتي ألا تصدقين حتى الضابط؟

طلب الضابط أوراقها ، تأكد منها وأرجعها إليها . . وأشار بيده أن تدخل ، فظلت مترددة .

تذكر أنني ما زلت أنتظر . . قلب أوراقي من جديد :

- يا حبيبة . . . ، الأخت مسافرة معك؟

تسألني بتوجس واستعلاء إن كنت درجة أولى؟

ابتسم . . أؤكد أن تذكرني كذلك .

حسمت لها إذ تمر نقطة التفتيش أن هناك مدخلا خاصا . . صحيح ، ولكنه فقط لركاب الدرجة الأولى في طيران الملكية الأردنية ، ونحن مسافرتان على الخطوط القطرية ، وعلينا فعليا أن ندخل مع الآخرين

كنت أرجع من عمان إلى الدوحة المشاركة في مهرجاناتها الثقافي ، والدوحة سعيدة عرفتها وعشت فيها قبل أن يكون لها كورنيش ثم رأيتها تتحلى به ، وكانت شجيرات العوسج تزين رمالها وحوران النخب البري والجمال السائبة تسيح طرقها ، الشمال وطريق سلوى إلى السعودية ، قبل أن تتقلب رمالها مزارع خضراء ، وتغطيها بيوت الحجر والفلل والحدائق والقصور والأسواق ، وما بقيت ردم البحر حين استفادوا من تجربة جارتها في توسيع أراضيها فصارت منطقة "الدفنة" سكنا للكبار والمقتدرين والفنادق والأبراج ، وقضيت فيها شبابي وأنجبت أولادي وسعدت بصداقات تتجاوز صلة الرحم مودة ومشورة حسنة ، وأسهمت ما استطعت ببرامج سياسية وثقافية إشكالية واجتماعية نال بعضها جوائز وتقديرا وأذيع من محطات عربية عدة حين وزعته اتحاد الإذاعات العربية ، وبرامج إشكالية كالتحدي وظيفتي ذات يوم حين عرضت على الهواء مباشرة لحية موظف مصري يسكن في بيت آيل للسقوط ، بينما الدوحة قد تقدمت إلى مسابقة أجمل المدن وعرضت صورة للبيت المتهالك الشيخ القطري جاسم عبد العزيز وكان حينها مشاهدا ، وطلب إلي الاعتذار عما عرضت ، فرفضت .. واستغنى عن خدماتي لمدة عام ونصف . عدت إلى الأردن حيث لم يسمح لي بالعمل للاعتقاد بأن لي انتماءات سياسية أدت إلى فصلي من عملي ، فلا أحد يصدق أنها مجرد قصة بيت متهالك عرض في برنامج .

ولكنهم طلبوا عودتي من جديد حين أصبح الإعلامي سعد الرميحي مديرا للتلفزيون . عدت عام ١٩٨٨ . ومن المفارقات التي حدثت في الدوحة وخرجت منها ولا أعرف سكان هذا البيت . وقد أثار فصلي عنها ضجة كبيرة فالأمر لا يستحق قرارا تعسفيا كهذا ، ولكن الجانب المشرق لذلك الظلم أنني عدت إلى كتابة الرواية حين شغلني الإعلام عنها وكتبت ونشرت روايتي الأولى والشرق عرياه أثناء فترة الفصل . ثم عبرت سنوات التكيف لسعادة الشارع الفائز ، وخرجت مع الألفية الثالثة قبل أن تتحول الدوحة بثوبها المتاح إلى مدينة أخرى ، اتسعت وازدهرت واختلفت حتى على من بقي فيها .

كنت سعيدة وقلقة ويتملكني شعور من يلتقي من أحب بعد الانفصال ، ليكتشف ما غيرته فيه الأيام .

أنهينا إجراءات المطار ، ثم سحبت السيدة إلى الصالة الخاصة .

شيء ما في هذه المرأة له خصوصية لا أستطيع تحديده .

تفحصتُ صالة الدرجة الأولى ومن فيها .. فارتاحت قسماتها .

أقبض على نظراتها مرات وهي تراقبني خلسة وهي صامتة ..

تسحبني ، فنعتذر من قريبه ما أشبه .. طلبَتْ عصيرا ثم شايا مثلي ، ثم جلست قبالتي .

صافحت عيني إذ تفحصتها نظرتي حرجي .. وأبتسم لها في ود .

بدت لي كأنها تستجمع ذاتها وتتردد في بدء حديث ، وتقاوم

رغبة تود نفسها أمام امرأة قابلتها صدفة .

وما مشاوله بشاعر ، إنما هو محاولة لاستعادة هيبتها أمام أخرى توسمت -ربما- أنها تعرف أكثر ، أو لتعتذر عن موقف أحرجها حين انطلقت بينما عامل القطار على حق :

– ابني مدير شركة كبيرة في دبي ، طلبني قبل أشهر لزيارته ، وقال لا يمكن أن تسافري أنا وزوجتي وأولادي درجة أولى وتسافر أمي على درجة «عادية» . . وحين وصلت سالمة من السفر بالدرجة الأولى ، أخبرتهم أنني تعرفت إلى عائلة مسافرة وبقيت مع الناس ، ضحكوا علي وحسبوا القصة مسخرة ؛ لأنني لم أعرف أن للدرجة الأولى متعاملا خاصا وثقافة المسافرين ، قالوا دفعنا زيادة عشان ترتاحي مش لتحكي مع «الساقطين» ، وظلوا طوال شهرين وكلما اجتمعوا يتندرون بها (يطلقونها على حكايتي) مع أصدقائهم وأصحابهم حتى رجعت من دبي . . وابني الثاني مدير شركة كبيرة مثله ، وانتقل مع عائلته إلى قطر ، ويرجوني أن أزوره وأقبل التعب ، ولم يقبل إلا أن أسافر على الدرجة الأولى ، وأنا لا أريد أن يجعلوني مسخرتهم مرة ثانية .

تتجمع في عينيها حرقة ضيق يتنامى ، وأسى يخرج ويطفو عليها في استطالة الصمت .

أطيب خاطرها . . وأؤكد أن أبناءها أخطأوا حين لم يتبعوها إلى عربات تذاكر السفر ، ولا يحق لهم أن يسخروا من طيبتها معها . . ثم

إن موظف شركة الطيران مسئول أيضا حين اعتقد بأن المسافر يعرف ميزات التذكرة ، ونسي أنه قد يستعملها للمرة الأولى ، فلا يشرح له بطاقة دخول الصالة ، وأن ما حدث خطأ من كليهما ، وقد يتعرض له أي مسافر .

أرمقهما تصافحاني لحظة .. تراجع ما قلت ، ثم ترقص التهاني لأجلهما وتعاطفني لها على حسابهما بحزم .

تؤكد أن أبا نبيهما لم ينبههما لأنهما تعودتا أنها تعرف كل شيء ، فهي من تخيرت أمر دراستهما وأصرت على دخولهما الجامعة ، وأشرفت على زواجهما ، وبناء البيت وتأثيثه ، وأنها المدير حلقاته في كل المواقف ومع كل حدث أو قرار ، وتود ألا ينسيها أحد .

حتى ابنتها الوحيدة لم تعرف ميزات التذكرة رغم أنها متعلمة ، ولكنها حين سافرت في جولة كانت على الدرجة الاقتصادية .

يشرق وجهها بالحب والفخار وترقب إبهاري إذ تحدثني عن ابنتها .. تخرجت من الجامعة الأردنية «بيولوجي» قالتها بالانجليزية .. ثم تزوجت وأنجبت ، ولكنها لم تعمل بشهادتها ، بل مع الدكتور ... إنه طبيب جلد ، ألا تعرفينه ؟!

ولم أكن أعرفه .

ابتسمت وهي تؤكد أنه يعتمد على ابنتها في كل شيء ، وأنها صارت الكل في الكل في عيادته ، وكثيرا ما تقوم بالعمل نيابة عنه .

وطويل وهي تستعرض قدرة ابنتها على كسب الزبونات ، فمن تجرب خطارتها لا تقبل استبدال مهارتها أو ترضى بسواها ، فهي تمحو آثار الأيام والسنين من الوجوه والأجساد ، وتعقد بالجلسة سلسلة عمليات لرسم وجوه النساء ، الليزر وإزالة الشعر والكلف وشد البشرة وإزالة السواد تحت العين ، وحشو التجاعيد (بالبوتوكس) ، ونفخ العضلات بالفيلر ، وإزالة الشحوم والسمنة ، وكذلك مثل السحر وبلا جراحة . وتقسم إن ابنتها تصلح أي عيب في البشرة ، أي والله يصير وجه العجوز أملس وصافي مثل صبية في العشرين ، لا نمش ولا حبة ولا كلف ولا تجعيدة .. دربها الطبيب بنفسه ثم أرسلها في دورة إلى فرنسا مع شركة متخصصة بأدوية التجميل وآلاته ، وحين عادت استلمت العمل ، وصار الطبيب شغال اللهم زد وبارك ، كل بنات عمان ونسوانها عندها .

ألمح وجهها تبتسم .

وبشرتها بيضاء لامعة لا يعكر صفاءها شائبة ، تكسوها طبقة من الماكياج الخفيف لا تلمحها العين للوهلة الأولى وتبدو طبيعية ، وأظافرها قصيرة بلا لون وإن ظهرت عليها حديثا عناية كبيرة .

امرأة تمر على مسامعي .. ولها قدرة على حوار متصل أحادي بينما لا تتيح لي إلا أن أهز رأسي أو أبدي دهشة تعجب أو استحسان ، ولم يكن يعنيها إلا أنني أسمعها . كانت ذاكرتها مثل المسجلة دون ضاغط على الزر الأخضر فلا من عليها منطلقا لا يتوقف أو يتمهل .

تعود وتسهب في وصف منزل الطبيب ، تحدد لي الموقع ، والطريق والمسافة والطابق . وتؤكد أنه أفضل أخصائي جلد في عمان كلها ، وأن لا مثيل لمهارة ابنتها ، ولا شك في النتائج المضمونة لكل من جرب خبرتها .

ألمــس وجهي .. لتهتز ثقتي بشكلي أمام عينين كالمجهر تفحصان وجهي ، وكلمات تحرضني أن أجرب .

لا أبدي تحمسا لتكثف من الإلحاح .

امرأة طامحة شديدة الذكاء ، سريعة التعلم كيف تنافسني .. تنم ملابسها عن عناية ومعرفة بتناسق الألوان وقدرة على الشراء .

أحضر بعض الفاكهة من البرتقال وقطع الكاتو ، تتفضل علي ، يتوقف سؤال الله في عينيها عن كاتب السطور وعنه حرجها مني .

تقطع صمتنا لا تسمح له أن يدوم ، تبدأ جولة ثالثة من التفاخر في مسكني . امرأة قادرة على حديث لا يتوقف . هذه المرة عن تعرفها هي

تسكن جميلة الأميرة وحدها في حي الزرقاء الجديدة ، ضاحية مرتفعة حديثة تختلف عن مدينة الزرقاء القديمة ، لا تعرف زحامها أو اختناق سيلها أو عصف رمالها ، تلك مدينة صحراوية تشكلت عماراتها من الطوب والخرسانة حول معسكر الجيش والمستشفى العسكري على طرف الصحراء . هنا وضع تصاميم عمارات وبيوت الحي الجديد مهندسون ، وتسامت بالحجر على جبل مرتفع ، والشوارع

واسعة والبيوت كبيرة ولها حدائق خضر .

تصف بيتها .. من حجر أبيض وسطحه مغطى بقرميد ، كبير من ثلاثة طوابق ، تسكن الأول مع زوجها ، والعلويان لولديها .. يلتقون لديهما إجازة الصيف ، ثم تفتقدهما حتى عام آخر .

مر الوقت بطيئاً مع حديث منفعل وامرأة لا تعرف الصمت ، أضيق بها إذ تفرد ذاتها أمامي باستمراء .. والتمس فرصة تشغل فيها الآن كتابة مقالات لإنهائه في السفر والقيم عليك يا روحي ..

لا مجال في تتابع حكاياتها .. امرأة لا تحتاج لأسئلة أحداً ، وتسهب في تفاصيل لا تعنيني وإن شكلت حياتها .. كيف أشرفت على بناء البيت ، وناقشت المهندس وراقبت العمال ، وزرعت حديقة وأشجاراً مثمرة تذكرها بخضرة قريتها (بيروي) من قضاء نابلس .. وكيف زوجها أهلها ولم تتجاوز الخامسة عشرة من قريب يكبرها بعدة سنوات .

يغيب الزوج عن حديثها .

أسأل حسن أوصلها إلى المطار ، لعلي أستكشف شيئاً من حولها .

قالت إنها طلبت سيارة أجرة وجاءت وحدها .

لم يعد أمامي سوى المباشرة ، سألتها إن كان زوجها حياً .

تؤكد بلا كثير حماسة أنه موجود وفي صحة جيدة .

واستغربتُ حين سألتها لماذا لا يسافر معها ، هل هو مريض؟ ..

أجابت أن صحته «ممتازة» ولكنه لا يحب السفر ! كان ما يحب

السفر ، وأنا ما بقي أتحسس معه ، أولادي يجمعهم شرف الصبا بعد عنا ، وهو قال لا .. قلت سلامتي عليك في انتظار أنا بروح) ..

ضحك .. وأرافقها .

شرح يذكرها قليلا .. ثم يستغفر صوتها : - ضحكت معه بكل الطرق ، الشيخ والصغير ما في قاعة .. ما يصب بسيط ، بعد الأكل والشرب .. والنوم ، ابتسم وأيام صمرنا بتمر ، قلت لا أنا يحب لشرف الفتيا ، عليك أنت في القاهرة .

تصر أنه يفضل البقاء في المنزل ، وهي المشغلة ، لا عزاء ولا يرثو منذ ترك عملا زاوله طوال حياته (معلم حجر نخب أول) ، ولأنه ماهر تلك المهندسون من يبحث إلى عماله ، فعمل في بناء أكبر عماراتها وساحاتها الحكومية وقصورها ، جاءت معه ، وسكنت الزمالك القديمة ، وكان يغيب طوال النهار .. فتحملت وحدها مسؤولية البيت والأولاد ودراستهم .

تذكر السعادة تلامسها إذ تعدد بفخر مرات تخرجهم وتنصيبهم .. ولأنهم مثل شركات طلبوا من والدهم التوقف عن عمل مضن واكتفاوا بمساعدتهما .

استنكر الأبناء عملا مرهقا لا يليق بوالدهم ، فهو يكد من الصباح حتى مغيب الشمس في وضع مداميك الحجر المنشق حسب خرائط المهندسين ، ونقش الحجارة وألوانها ، ودخله بسيط لا يتناسب وتعبه .

يتم البناء الراقي في فلسطين والأردن (بالحجر) تنسف جبال الصخور بالبارود وتقسم بمحاجر خاصة ، ثم يقطع الصخر بقطاعات وأشكال مطلوبة ، ويعمل وينقش بالأزاميل أو بمعدات ، ويحتاج إتقانه خبرة ومهارة . . واشتهرت قرية قباطية الفلسطينية بجودة صخورها وصلابتها ومقاومة لونها للزمن ، فكانت المصدر الرئيسي لأفضل أنواع حجر البناء حتى شح صخرها ، ثم استخدموا حجر معان في فترة العمران في الأردن والضفة الغربية . . ومعان هي مفتاح الجنوب الأردني وقريبة من البتراء ، مدينة الصخر الوردية ، وإحدى عجائب الدنيا ، وقد بقي صخر البتراء مقاوما للزمن شاهدا على حضارة الأنباط وعلمهم وإرادتهم ، محفورا فيه معجزة لهم ، وسرا لها للعقل نظام الري وتصريف مياه حركة الشلالات . . والأنباط تجار بارعون ، صدروا القار إلى مصر من البحر الميت حين كان البحر يلفظه على هيئة براكين مرة في كل عام ، ومثله نبات البلسان من منطقة أريحا ، وكلاهما هو أحد أسرار وصفة التحنيط الفرعونية الفعالة

شربنا مزيجا من القهوة ، وتناولنا الفاكهة ، وأخطرنا عن تأخير الإقلاع ساعة .

لم تفكر تلك السيدة ولو أثناء حديث شبه أحادي امتد لأكثر من ساعتين أن تسألني ولو مرة من أكون أو لماذا أسافر للنزهة أو للعمل .

تركتها وانشغالها بنفسها وبالتفاخر .

قمــــت لأتناول جريدة من على طاولة الصالات والصحف لعل قراءة تشركني بعض وقتي أو ربما تشغل تفكيري . فتابعـــــــت ولم تتحــرك .

تشاغلتُ بتقليب صفحات الجرائد لعلها تصمت .. فوجئت بمقالة مطول عني في «المغرب اليوم» تتوسطه صورة كبيرة لي ، نشروه قبل موعد حفلة الفرقة سلفا .

اضطررت أن أرفـــع بصري وألاقي النظر إليهـا .. أحس بنظراتها تلاحقني ، ولمحتني أنها للمرة الأولى ومنذ لقائنا لم تقلد ما أفعل .

سألتني فجأة: «من صاحبة هذه الصورة؟» .

ولمت نفسي كثيرا لأنني ضحكت .

تؤكد أنها تعرفها . اسمها على رأس لسانها ، ولكنه يغيب لحظة . مشهورة وتعرفها من التلفزيون حين تبحث عن اسمها .

فلمست لها الصفحة ، مخبرا اسمي تحت الصورة بخط بارز .

تتفرس فيها وتعيد الجريدة ، تبتسم وتؤكد أنها لا تستطيع تذكر اسمها .

لعلها لم تنتبه للاسم ، أو لا تستطيع قراءته بلا نظارة طبية .

وتقنع أن تعرف .

هل كان غرورا أم إحســاسا داخليا بالأهمية (الزيف) .. ولكنه بالتأكيد شيء استنكرته ولمت نفسي عليه لاحقا .

سألتها إن كانت صاحبة الصورة تشبهني؟

افترست وجهي بعمق تسألني أو تهم جرأة مسافرة تخبئ نفسها بمثله؟

أؤكد أنها أنا.

تشيح النظر.. كأنما انصدمت.

وتظهر المرأة في مخيلتي باكية فاجأت من حولنا.. فالتفت..

تجفف دموعها ثم تسألني للمرة الأولى ماذا أعمل.

أخبرتها أنني كاتبة فصمتت بمكانها.. وأنا في حرج من وجود شاهدتها تبكي بحرقة، وربما ظنت أنني أسأت إليها أو قلت ما يزعجها.. وأنا حائرة في التعامل مع امرأة لا أعرف ماذا يبكيها في كوني كاتبة؟ أو في أن يقرأ الناس اسمي في صحيفة؟

ولكنها لم تسألني عن اسمي.

هزت رأسها وجففت دموعها وقالت كمن توصل إلى حقيقة دامغة، إنها تفهم الآن لماذا صمتت عليها رسائلها، لقد ظلت طوال الوقت تسأل نفسها لماذا أسمعها وأصبر عليها ولم أستاء منها، تلك لأني كاتبة والقدر يحترم واسعا مثلها، أما الآخرون فلا يقسمون وقتهم مع أمية لا تقرأ ولا تكتب، ضمير الأمي ما هو سوى مساحة مهينة، والكل يفرح منه بسرعة، وربما جدا يهتم بسوالفه ولا يحب سماعه، ربي لأنك كاتبة سمعتني، ويعلمون زعلت مني وجيت حزينة.. صفقوا حتى أنت زعلتي بعد شوية.

أسقط في يدي . . الطيب خاطرها صعب حقيقي .

حرموها من التعليم ثم زوجوها وهي في الخامسة عشرة ، وحين التحق أولادها بالمدارس طلبت من زوجها أن تعمل معهم وتلتحق بمحو الأمية . . رفض ومنعها من الخروج من المنزل . . «قولنا مابيحة حالي أقرا ، قلت بالمكن تروح معي ، حتّه أكثره» . . حاولت إقناعه بأن ينتسبا معا إلى فصول محو الأمية إن كان لا يريد خروجها وحدها ، فلا يجوز أن يبقيا جاهلين ويتعلم الأولاد . . فسخر منها . . «فقال اعتني بأولادك وبيتك وبلاش مسخرة . . كأني قصرت مع حدا فيهم ، قال بعد ما شاب ودوه على الكتاب ، أنا بيتي بلوذ الخرابة وبتي ملحق شغل ، وأنت ربي الأولاد أحسن لك . كنت صغيرة ومتحمسة وتاعبة حالي على العلم بس شتني ، والله العظيم ما سامحته على عملته حتى تموت» .

لهذا وتكمل بأن أولادها لم يعرفوا أنها أمية حتى كبروا ، ظلت تجلس لتسمّع لهم دروسهم والمسطرة بجانبها ، إن تأتأ أحدهم تعرف أنه لم يحفظ جيدا «تأتأته» ، وتطلب منه أن يحفظ ثم يعود إليها وإذا «كرج درسه زي الميه» تتركه يلعب أو ينام . «وكنت أحفظ دروسهم قبلهم ، ثلاثتهم»

نضحك معا .

لم يعرف أولادها أنها لا تقرأ ، والتعليم ولم يكتشفوا حين كبروا واكتشفوا .

أسألها كيف يقضيان الوقت الطويل؟ وإن كان لهما هواية مشتركة؟ .

تحدق أمامها طويلاً ، تقلب صمتها وأنفتها .. وتقول لتخجلني :

«أي رجّال بس يمشي يقوّر على مرة تانية .. بس يجري القرش بإيده يغير مرته ، قال كبرت ، كأنها بتكبر لحالها ، والشرع معه .. قلت له تيجي عندي بس ما تلمسني ، تنام لحالك وتصير بالك على الغلط . فهم ما بقال مع الزوجة الثانية ، وصرت أهتم حالي ، مش بعد شو؟» .

تعنّف نفسها باللوم حين أطاعت زوجها منعها من التعليم ، وأنها انصاعت حين رضخت له ، وكان يجب أن تصر حتى لو خرجت بدون أمره ، ومهما كانت نتيجة الإصرار «يعني مش عيب لو رحت أتعلم من وراه ، أنا مش رايحة أمشي غلط .. ويا ريت أتصر بعد أول ما شم إيده دور على غيري .. طلعها من العرس واهورها وهي كد بنته» ..

أحاول استرضاءها بأن أوان التعليم لا يفوت ، وأن أمامها وسائل تثقيف ثاني من التلفزيون مثلاً تقتنع .. تقول في بكاء يتخلله تشويش «حتى أنت صدقت القراءة على صعبة لسنة مثلي ، معلوم ، الأمي تمر حياته بطوله ، ويوشيه ما يفهم شيئاً ، والتعلم يحصل منه بسرعة» .

يخلصني من المجادلة ومحاولة الإقناع النداء الأخير لمسافري الرحلة .

نجلس في الطائرة متباعدين .. ونبتسم إذا التقت نظراتنا .

أعمال توسيع مطار القومية غيرت ملامح أمرقها ، والطائرات ورشة إنشاءات لا تتوقف . وقاعة القادمين تعج بركاب وصلوا قبلنا ، صفوف طويلة بالشبان من الآسيويين والجنسيات الأخرى ، وضباط يحاولون تنظيم الناس في ممرات متعرجة

وقفنا معا في نهاية صف طويل . . أقبل شاب من العلاقات العامة للمهرجان مبتسما وتساءل في دهشة : لماذا أقف هنا ؟ فقد أمضى بعض الوقت يبحث عني .

سيصطحبني إلى كاونتر جوازات مخصص للمهرجان .

انتهى الموقف الروائي . ألوح لرفيقتنا عن بعد حين أخرج ، والألم على وجهها خيبة أمل واضحة ، لعلها توقعت أن نستمر معا . . أو توهمت أن الخروج السريع من ميزات «التجربة الأولى» . . . انسحبت عيناها بحسرة وأنا أسير ، وهي تتابع احتفاء العلاقات العامة للمهرجان بقدوم ضيوفهم .

أحزن كلما تخيلت مشاعرها في تلك اللحظة ، ربما تصورت أنها لم تكن لتنتظر في صفوف طويلة (مع الناس العاديين) لو تعلمت أو انتهزت فرصتها . .

أرق لها . . . تقفز صورة أمي .

كانت ميولها تواقة إلى العلم . . وكانت راوية تلون حكاياتها تشبعنا مفتونة بعالم الكتب ، ولا تسمح لوالدي أن يقرأ رواية دون أن يحكيها لها ، ويناقشها فيها ، وكانت قارئة نهمة وسطها تزوجت في

الرابعة عشرة وشغلت بالأولاد .

صار مشهدنا عاديا في حياتنا أن يعودا من سينما «الشرق» القريبة من بيتنا كل أسبوع ، فأسمعهما وهما يتحدثان الفرج يشرح لها أحداث الفيلم الإنجليزي الذي سبق الفيلم العربي ، فسينما السينمات تعرض فيلمين بتذكرة واحدة ، ومثله الفيلم الهندي حين لا تستطيع متابعة الترجمة ، وكانت مغرمة بالأفلام الهندية ، ويبدو أنه عاقد معها اتفاق جنتلمان بأن لا تتكلم أو تسأل أثناء العرض ، وسيشرح لها حين يخرجان .

ولكن والدي شجعها على الالتحاق بمدرسة ليلية للكبار ، وظلت وقتا طويلا بعدها ، ولن أنسى وجهه وهو يشرق فرحا حين قرأت له الجريدة لأول مرة

كانت أمي مثالا لسيدة الأمية متلهفة على العلم والمعرفة ، وكانت تعتقد أنها خسرت حياتها حين لم تكمل تعليمها . لم يمكنها أن تتعلم أو تتابع رغم فرحها بنا ، وتتمنى لو سمح لها بفرصة بحجم تطلعاتها وتوقها للعلم . . وتعتقد أن العلم وحده سبيل التحرر ، فلم يمكنها أن تحفظ الأشعار والأغاني وحكايات العبرات ومسلسلات الراديو ثم التلفزيون ، وتغنيها وتلخص حياتها اعتقادها بأن من لا يقرأ لن يدرك أفراح الحياة .

تبرز صورة امرأة التقيت بها في مطار الملكة علياء الدولي كلما مررت به ، وجه جميل لم أعرف اسم صاحبته ولم تسألني من أكون ،

ولم يحمها من أسري إلا أنني أكثر .. امرأة تؤمن أنها كانت ستخسر حياتها لو تفهم الآخرون رغبتها الجارفة في صميم أعماقها .

امرأة تحلم أنها تقرأ .

* * *

# امرأة من المنطقة الحمراء

أخرج من باب محطة القطار في فرانكفورت .. أطل على متسع ساحة (هاوبتفاخة) التجارية وسط المدينة ، منطقة مشاة واسعة مرصوفة بالحجر ، تحيطها المحلات الكبيرة والمقاهي والمطاعم وتتوسطها النوافير والخضرة ومقاعد للمتنزهين ، وتتفرع منها شوارع إلى ميادين جميلة تروي قصة وتاريخ مدينة ، ولكل منها طرازا معماريا ، ويعكس حقبا حضارية وسياسية تعاقبت على ألمانيا ، وأشهرها دار الأوبرا والمسارح والمتاحف . كانت الثانية عشرة صباحا من يوم التاسع من نوفمبر ٢٠٠٨ .

تتميز مباني فرانكفورت العتيقة بالبناء من الطوب الأحمر ، وأخرى نحاسية مؤكسدة باللون الأخضر ، وجميعها تشهد على مكانة فرانكفورت الثقافية والسياسية كما الماضية .. ففي الجزء الحديث منها تتطاول ناطحات سحاب وتتلاصق .. وتستحضر رؤيتها صورة نيويورك وشارع المال فيها .

اختارها ولم تحظ عاصمة سياسية له .. وولد فيها عميد الأدب الألماني وأمير شعرائها فولفجانج فون غوته ، صاحب المسرحية الشعرية

المطربة الراحلة «هاينه» . . وهي نص مقرر على جميع طلاب ألمانيا منذ عقود . لهذا فلن تجد ألمانيا واحداً لا يحفظ مقاطع من شعر غزله مقلداً أو لا يتغنى بها .

زرت فرانكفورت في مناسبتين ثقافيتين ، معرض الكتاب الشهير حين كان العرب ضيف الشرف فيه ، وهو أكبر معرض للكتاب في العالم ، ثم للمشاركة في مؤتمر رابطة القلم العالمي للدفاع عن حرية التعبير ، وهي زيارات ظلت أغلبها قصيرة ، وتلتمس جولاتها السريعة التعريفية على أهم ما في المدن ، ولكنها لا تتيح للزائر الاكتشاف الثقافي لروح المدينة ، ولا معايشة تجارب شخصية فيها .

قررت اقتناص مروري بالقطار لأتسكع في أسواقها وحدي ، كنت قادمة من أمريكا ، ومدة التوقف «الترانزيت» بين شيكاغو وعمان إحدى عشرة ساعة . . والخروج من المطار أكثر فائدة من الانتظار في صالة المطار أو منعزل .

قررت أن أتجول في المدينة وأسواقها وأجلس على مقاهيها وحدي وأستعيد ملامحها ، وفي اعتقادي أن معرفة المدن وتلمس روحها الحقيقية يتم عبر أسواقها ، فهي عمق المدن وتاريخها ، حيث تكشف البيع والشراء أخلاق الناس ومعدنهم ومستوى معيشتهم ، ويزيل التجول والتصرف أية غشاوة من طباعهم وأساليبهم وأنماط حياتهم .

استغرب ضابط المطار توجهي إلى الترانزيت وهو يسألني عن

ودهش : «سيدتي لقد جئت في وقت مبكر جداً لأية معلومات عن رحلتك؟»

شرحت له ظروف الرحلة .

تركت الكومبيوتر وحقيبة السفر لحفظهما في الأمانات ، ونزلت بالمصعد إلى محطة القطار . . وهي تحت مبنى المطار مباشرة . . يقطع القطار خمس محطات ثم يتوقف ، فأخرج إلى منتصف الساحة الشهيرة .

تلك فرانكفورت ترتبط في ذهني بالنقانق والتبغ والثراء حتى رأيت فيها تلك المرأة .

كنت أحاول اكتشاف مكاني وأنا أخرج من المحطة ، مشاة يتنزهون ومحلات يعكس عدد زبائنها حجم الأزمة المالية العالمية . . ومحلات صغيرة تتصاعد منها رائحة النقانق (السوسيج) تتخصص بها وتميز مدينة تنتظر لتحضر ، مقلية أو مشوية ، تقدمها لمن معها [illegible] بعد رحلة طويلة ، شباب وشابات يقفون في طابور لوجبة الظهر جماعة . . نقانق وخبز وخردل وبصل مقلي وعصير طماطم . وشفاه شابة تلتهم .

وفرانكفورت هي مدينة النقانق ، وأشهر أصنافها يحمل اسم مدينته ، تختلف وتتباين سمكاً وحجماً ونوعاً ، لحم بقر أو دجاج أو خنزير .

أتسكع متأملاً بهدوء وبلا هدف . . لم أكن قد ابتعدت عن المحطة

حين أرقب جدلاً بين رجل وامرأة .. يتقاتلان بين القلة على الرصيف ، وسيلتي بخطوات الليلة ، تمتد المرأة وتحتج بنبرة أقرب إلى الصراخ ، وهو أمر غريب في ساحة لا يرفع فيها الناس أصواتهم لئلا يزعجوا الباحثين عن الهدوء ، ومتعة التأمل والتنزه .

ما سمعته هو الروسية أو لغة إحدى دول أوروبا الشرقية .

استوقفني منظرها .. امرأة شابة جميلة بحدود .. تثير الفضول دون تحديد للمتعلق فيها ، أتفحصها ، تلتقي نظراتنا .

أحرك الرجل انتباهي واستغرابي حين التفت إليه .

يتهدل من على كتفي الشابة «كاب» ثقيل بني اللون من صوف الكشمير الناعم ، يزينه شريط عريض من فرو الأرنب ، ويزيد ثمنه عن ألف يورو ، يعرض عادة في أجنحة الفراء في المحلات الكبرى ، بيضاء ، متوسطة الطول والامتلاء ، وتلم شعرها في ذيل حصان ، حصينة لا ترى إلا هو .. ورجلاً تتحاشاه نظراتها يمشي خلفها بمعطفه ، والتفت حولها فلا ترى سواه ، وليشعر كمن يكره كل شيء ويتبرم به .

هما رجل وامرأة يتجادلان على الملأ والهاتف في سرواله تتحرى واجهاته بالطرق ، ويتجادلان بصوت مرتفع وبطريقة فجة في شارع مزدحم ، تصرخ نبراتها وتحتج وترفض وتتشنج في خصام بدا الرجل طويل القامة في الأربعينات ، وسيم الملامح وأنيق روسي الشعر ، يرتدي معطفاً جلدياً ثمينا يتدلى حتى ركبتيه ، ويلفه بحزام من الجلد نفسه

منذ عصره ، وإذا كانت عشرتهما بالنظر إلى الكآبة وتتنافر مع ثيابهما الشالية .

هلا تلقيتهما إذ أمر بهما . . فتلتقي نظراتنا .

كان الكاتب المصري شلوفا في المظهر العام للمرأة ، وجهها بائس رغم حلاوة باقية فيه ، وفي عينيها انكسار يحير من يراها ولم ترفعها على رجلها . . تلوح بإحساس بمحاولة به من مشاركة بإمكانية الشمس . . تلوح بها كأنها تبحث بالاستهلاك . . شعرها الكستنائي لم يعرف العناية ، وعطلاتها غير ثابتة على كعب عال وحذاء عادي لمساعد التوازن عليه ، وكبر شعرهما يخيل . . بتجاهل الكاتب الثمين ولطيع هيبة له افترضها مصممه حين ترد المرأة نسله الطويل على كتفها ، ثم تحول قامتها متشحة بأناقة ما ترتدي . . فيتصرفه ليقاس المرأة كأنه يقول «اعلميني فلست منك ولا أنت مني» .

فقد انتقى محمية بفراستي وقدرتي على التخيل والاستنباط : فالتباء روسيا البلد وصلنا حالاً وهو زوج مرتضى تبلو امرأة معدمة تعسة في ظل أزمة مالية طاحنة . ولا بد أنهما من حققوا ثروة بالتهريب أو النافيا بعد انهيار الاتحاد السوفيتي . . وقد ظهرت طبقة «النوفوريش» أو الأغنياء الجدد بالفرنسية – الذين يثرون بعد الحروب أو التحولات السياسية – في جميع دول الاتحاد السوفيتي المتفرطة . . وقد برزت طبقة كبيرة من هؤلاء بعد انتهاء الحقبة الاشتراكية ، وزوال سيطرة الحزب الشيوعي السوفيتي نتيجة لبرنامج البيروسترويكا لإعادة

البناء) فلدى التصميم سيتحامل غورباتشوف في فترة رئاسته التي استغرقت أكثر من ثلاث سنوات (١٩٨٨ - ١٩٩١)، فانهار الحزب والاتحاد السوفيتي بدلا من إعادة البناء، وأنهى غورباتشوف الحرب الباردة بين القوتين العظميين، روسيا وأمريكا، لتسود العالم القوة الأمريكية الأحادية. وأفرز هذا الانهيار الفوري وانتهاج سياسة اقتصاد السوق والانفتاح الاقتصادي طبقة الأغنياء الجدد.. ومعظمهم دون أصول اجتماعية أو ثقافية، ومن قرى نائية فقيرة أو من طبقات العمالية، وتبدو النعمة الحادثة جلية في ملابسهم وتصرفاتهم ونمط حياتهم.. تثير الشفقة ولا تخطئها عين. لا يعرفون أدب الحوار أو ترتيب التعامل أو إتيكيت الطعام، ويرفعون أصواتهم في الحفلات والمقاهي والمطاعم والشوارع. وهم يملكون كل شيء إلا رغبة التحضر النفسي.

أبلغتهما وأنا أحتال بذكائي وقدرتي على التحليل والاستنباط الذي لا يكل، حتى بعد رحلة ليلية طويلة.

أدخل متجر «غالاريا» الضخم.

تستند فرانكفورت على ضفتي نهر الماين.. مطارها أحد أكبر مطارات العالم، مدينة متوسطة الحجم.. وثلث سكان بلاد «الجيرمان» لا يستطيعون نطقها أو حتى يعرفونها.

يرتبط اسم فرانكفورت بالمعارض الدولية، الألمانية كما العالمية والصناعية.. معرض الكتاب، وأنجح حسن فعالياته جائزة لونه

للإبداع الأدبي، وجائزة السلام. وهناك معارض سنوية لصناعة السيارات، والأنسجة، ومنتجات الطيران، والفضاء.

البرد الألماني قارس في نوفمبر (تشرين الأول)، ولكن شمس ذلك اليوم شجعت كثيرين على الخروج.. وبدأت تظهر في بعض واجهات وقاعات المحلات زينة وأشجار أعياد الميلاد. وإن التي تتكشف بظلالها على أرصفتها، وتعكس عمق الأزمة المالية العالمية في انهيار البورصة وجنوح أسعار البترول، فقد تجاوز سعر البرميل في هذا الوقت مئة وعشرين دولارًا.

شعرت بخيبة الأمل، فما رأيته من زينة عندي لا يتناسب وشهرة المدينة عما تتجمل به وتتشح من زينة الميلاد، وهي أنها تنصب وتزين أكبر شجرة ميلاد لألمانيا في ساحتها.

أتجول بلا هدف.. أتنقل بين طوابق المتجر. أتفقد ملابس لا أعتزم شراءها، وأتعجب لأسعار تعكس الغلاء العالي

القلب والذوق.

أمسكتني امرأة في الشمال فلا أتبين، ولكن حسها قريب جدًا..

رفعت بصري.

جملت بالصدمة والفرح وخذلان ذكائي.. كانت تقف على يميني وتكاد تلتصق بي.

هي ذاتها صاحبة الرداء الصوفي وفراء الثعلب، تقف بجانبي ومن يميني، تدلي وردة حمراء مطوقة بالسيلوفان.. ألتفت حولي

باستغراب ودهشة وبلا تصديق لما أتهم . . كانت توجهها من على يساري بخطوتين . . ويراقبنا .

وما زلت مأخوذة أتفحصها فلا أسعل أو أنشرح ، لمحت يدها الأخرى تختفي تحت الكتاب الثمين مقلدا من الورود الحمر ، وقد أمسكت كل واحدة منها بسيلوفانة ، بينما تمد لي الأخرى بوردة وبنظرة كسيرة . . وتهمس بما فهمت أن أشتريها .

أطلقت حولي لطفي التنح ، مصدومة بما لا يصدق ، خائفة لعل أحدهم يشرح لي .

كان الرجل ذو المعطف الجلدي يراقبنا بنفاد صبر ، فتح صدر معطفه حتى الخصر تبعا كرجل قادر ومحترم ، يلف حول رقبته شالا حريريا بألوان زاهية تبهت منها في داخله الأصفر والأبيض . . كان مستفزا بشكل لافت ويبعث على الريبة والتوجس . وحينه لسرنا على حقيبة يدي الكبيرة (مولمة خلف الهاتي) ثقيلة وحقلي من كتفي منتفخة . . حشوتها بكل ما أملك وأملكه في رحلتي : جواز السفر والرسائل وتذكرة العودة وبطاقات الائتمان والكاميرا وتلفوني وبطاقة الرجوع إلى المطار بالقطار ، ووصل الأمانات لاسترداد حقيبتي والكومبيوتر ، ومبلغ صغير أستعمله في الرحلة .

برد فعل التعرف تمسكت بالحقيبة .

متسولان إذن؟!

وما يرتديانه من ثياب أنيقة هو (عدة الشغل)؟ والتحايل

والنصب لدخول الحفلات الكبرى دون اعتراض أو إثارة شبهات رجال الأمن حولها .

أخرجت من جيبي قطع نقود معدنية لا تتجاوز ثلاثة وأعطيتها لها . . وقد تعجبت أن أقنع حاملتي وحدها بجنيهات بي ، والرجل يستحثها أمرا بعصبية واستعجال لترد تطلب وتفرد كفها بالعطية لها . أنقل بصري بينهما وما زلت مأخوذة . .

ترضخ أخيرا . تتوسل بحركات من يديها وإصرار عطوف أن أشتم الوردة . . وتلح بإشارتها واثقة لم أفهم أن أجرب وأمتعها بالعطر .

أتوجس من إصرارها وعناد عيني رجلها ومشايعته لنا . وتتقافز ذاكرتي تلك القصة الرهيبة عن شم الورود ، جريمة هزت المجتمع المصري نهاية الخمسينات ، حين استخدم مروجو المخدرات في الإسكندرية جمال الورد والحث لتصيد أطفال من المدارس على النهر ، لتسهل سيطرتهم عليهم حين يدمنون ، ثم يستغلونهم في الترويج والبيع ، فهم أطفال مدارس والهيئة وبلا سوابق ، ولن يفطن إليهم رجال مكافحة المخدرات أو يشكوا فيهم . . رشوا الورد بالهيروين ، وقدموه للصغار مجانا ليدمنوا ، ثم بدأ الصغار يشترون الورود بمصروفهم اليومي ، وبما يسرقونه من بيوتهم وعائلاتهم .

كشف جريمتهم أحد الآباء . . طبيب ، لاحظ شرود ابن لم يتجاوز الثامنة وسيلان أنفه وأقلقه ما يشبه مظاهر إدمان . . تبعه ماشيا للمدرسة صباحا ، قفز الصغير بلهفة إلى بائع الورد وأعطاه ما سرقه من مصاغ

لمه وأخذ وردة وحقن أنفه تيها .. فحصها الرائد في المختبر فتكشفت خيوط الجريمة المتكررة .

تبع الشابة بحركة من يدها وحاول إخفاء بعض الورد .. أطلّ بصري بينهما وأرطش ، علّه يحمل ما يفقدني توازني أو أغيب معه عن وعيي فيسهل على الرجل انتزاع محفظتي بينما يبدو كأنه يحتضني .

يتصعد الآن بما لا أفهم .. مستديرًا وفي عجلة ، وله سطوة على الشابة رغم اعتراضها ومشاكستها له .

تنتقل الراكبة إلى مقعدها خلفي ، صنعت لها ربحة وترجوها أن تساعدها ، أطبقت المسنة على حقيبة يدها بحركة غريزية ودسّتها تحت إبطها ، لم تهزها بحرص وحزم غاضب .

تبادلت مع نفسها الاستفهامات وعدم تصديق ما يحدث في واحدة من أكبر وأشهر العواصم الأوروبية ، أنا بالإنجليزية التي يبدو أنها لا تعرفها ، وهي بالألمانية لا أفهمها ، ولكن إشارات اليد وتعابير الوجه والصوت أوحت باستنكارها وخوفنا منهما .

استمرت .. تلاشى الاثنان في اتساع المكان فجأة كما ظهرا .

ألقيت بالوردة في سلة المهملات .

أقرأ في صالة الانتظار في المطار نسخة بالإنجليزية من جريدة ألمانية ، تحقيقًا مثيرًا عن ازدهار تجارة الجنس في ألمانيا في ظل الأزمة المالية العالمية ، عن قوادين يستغلون سذاجة شابات ، يزجون بهن عنوة

رحبا من زفاف ومال وحياة أفضل ، ومن مدن كبيرة وصاخبة تفتح ذراعيها تستقبل وترحب بالغرباء ، وأحلام بملابس وبيوت لا تشبه بساطة ورتابة القرى في دول أوروبا الشرقية .. ويتبع بعضهم من وهم الشاعر تبعا للقرويات ، من حب وزواج إلى الأطفال ، فتسلم الفتيات ثيابهن لبائعي الأوهام ، يستولون على جوازات السفر ، ويجبرون الفتيات على تحصيل النقود بالسرقة أو بيع جسدها وربما كليهما ، ويستولي القواد على كل ما تكسب ، وهي لا تستطيع اللجوء للبوليس ، فلا وثيقة معها ، وستعتبر متسللة ومقيمة غير شرعية ، ولا تملك نقودا ، وقد تسجن قبل أن ترحل إلى بلدها ، وستعود خاسرة لكل شيء ، تستسلم الفريسة الوحيدة لأسيادها مرغمة .

تلك الشابة واحدة منهن إذن ، يستغلها قواد مجرم في السرقة صباحا ، ولا أحد يعرف ما يفعلونه لها مساء ، لكنها تسير ويقف على مسافة منها لا معها ، يتنكر لها إذا قبضوا عليها ، ويتبعها تحت بصره ورقابته فلا تهرب .

أرأيت .

ترى السيناريوهات المرعبة .. ماذا لو سرقا حقيبتي بكل ما فيها؟ جواز سفري وتذكرة العودة والنقود والتلفون وتذكرة الرجوع بالقطار ووصل أمانات القطار ، وفي بلد لا أعرف فيه أحدا ولا أملك قرشا ..

أرأيت .. وأحمد الله أنه جنبني هذا السيناريو القاتم .

أنهي قراءة التحقيق عن تجارة الجنس في ألمانيا والعالم ، عن

امتهان الجسد ضمانة للعيش ، ومتحف مأساوية تقشعر لها الأبدان ، ويحكي أرقاما مذهلة من إيراداتها وظهورها في مدن ألمانيا .. فباغتتني صور محزنة للعهر والجنس في المناطق الحمر في بعض عواصم العالم ، باريس ولندن وأوسلو وكوبنهاجن حيث اللحم الرخيص يتسابق على الثمن والزبون .

سميت مناطق الجنس بالمنطقة الحمراء ، أو القسم الأحمر ، لأن العاهرة كانت تشعل ضوءا أحمر في غرفتها ليستدل الرجال على مكانها .

لا شيء يمتهن كرامة المرأة وإنسانيتها كالمتاجرة بجسدها ، واعتباره سلعة تبيعه لمن يرغب ، ولن أنسى ما رأيته في أوسلو ، ثلاث مومسات يتسابقن إلى سيارة رجل توقفت في شارع المنطقة الحمراء ، كل تمنعه من الثالثة ، يساومنه حتى ظفرت به واحدة فغادرت إلى جانبه سعيدة ، وعطلت وتركت الأخريات في انتظار صيد آخر يقذفه الطريق .

كنا عددا من الكاتبات العربيات ومرافقتنا الكاتبة النرويجية ، صحبتنا إلى مقهى شهير يحاذي الشارع الرئيس حيث تبدأ المنطقة الحمراء ، وقالت أن ننتقل جماعة لا تقطع المكان ، فمن تسير وحدها قد تتعرض لخطر معاملتها كبنت ليل ، أو ربما يسطو مجرمون على حقيبتها . أما متحف الجنس في ذلك الشارع فقد دلتنا عليه يافطة نحاسية كبيرة علقت بجانب باب صغير ، صعدنا عدة درجات فبدى

السـاع المكان . . تفحصتنا باعة التذاكر باستغراب ، فجئنا نساء تسأل عما يعرضون وثمن التذاكر ، وربما ظنت بنا الظنون . . كانت الأفيشات على المدخل والأبواب تشي بأنهم يعرضـون أفلام بورنو من العيـار الثقيل ، كما يعرض من الفصل مسرح للجنس . وانسحبنا خوف أن تعرض علينا ما يناسب «ميولنا» بحثاً عما يلهيهن ، وإلا لماذا تحضر مجموعة من النساء إلى مكان كهذا؟ تضحك كثيرا للخاطر الملعون ، ونغادر بينما تظل باعة التذاكر يتبعنا في دهشة واستغراب .

ومثل ما رأيته في المنطقة الحمراء «دي ولين» في أمستردام أشد مناظر تجارة الجنس فجاجة وامتهانا ، تعرض الفتيات بضاعتهن الجسدية عاريات أو بورقة التوت في واجهات زجاجية صغيرة ، تتفاوض الزبون من يختار مباشرة وأمام المارة لتختفي معه في الداخل ، أو عبر الشوارع الخاصة بها أو مكتب استعلامات يعرض أرقام ومواصفات الفرس والجسم والقد والسن واللون . كائنات محبوسة يعرض فيها اللحم الرخيص في ثياب داخلية باهظة الثمن ، ولكنها عند المدخل . كذلك الكآبة والخيبة على جسد المرأة في فرانكفورت ، مجرد «يونيفورم» لباس عمل يسحب منها بانتهاء شغلها .

تمتد منطقة «دي ولين» الحمراء في العاصمة الهولندية أمستردام على عدة قنوات مائية ، وتنتشر شوارع الجنس ومتاحفه ومسارحه حول ثلاث قنوات على بعد خطوات من الكنيسة القديمة ، أوده كيركه «Alte Kirche» ، ومثلها مثله تبيع الحشيش والماريجوانا

فرصة للاستغلال الجنسي تحت سمع الشرطة وبصرها ، وتلتقي بعض الأطفال بجماعات مثليين بأنواع الشذوذ وتكيفاتها . . لكن أعجب ما رأيته في زيارتي الوحيدة لمنطقة دي والين كان حين سمعنا ضحكا صاخبا ورأينا جمعا غفيرا يتحلقون أمام إحدى فترينات الجنس ، كانت عجوزا شمطاء ثقيلة الجسد في فترينتها الزجاجية عارية تماما ، تربع إحدى ساقيها على كرسي بجانبها وتعرض أعضاءها الجنسية بشكل فج ، لم أدر الجنس الذي تحرض المتفرجين على تجربته معها .

بنيت مدينة القنوات والجسور المائية المتخففة أمستردام على نهر أمستل ، ومنه سميت البيرة الشهيرة في العالم . وقد أثارت منطقة دي والين كثيرا من اللغط حول مسألة تجارة الجنس ، فهي بؤرة لاستغلال الفتيات من أنحاء العالم للعمل كعاهرات . . تستدرج إحدى العصابات ، ومنظمون لرحلات جماعية ، بإعلان عمل مغر في أية دولة أوروبية ، كجليسة أطفال أو طبيبة أو نادلة أو محاسبة ، وكثير من المخدوعات طالبات أنهين الدراسة الجامعية أو الكلية ، ثم حملهن الطموح الساذج ببساطة إلى مدن الوهم والخداع . وحين وصلن هولندا أجبرن على العمل كعاهرات . وقد أثارت قضية عاهرة شغلت هولندا إعلاميا وتشريعيا حين اتهم البوليس شبابا من المغرب وتركيا بالعمل لصالح بيوت الدعارة ، بمطاردة الفتيات من شرق أوروبا بتمثيل أدوار العشق والهيام عليهن ، ثم إحضارهن وبيعهن لهذه

الغير . كما يثبت تقارير البوليس الهولندي أن معظم فتيات الليل من أمريكا اللاتينية وآسيا لكن ضحايا شبكات من بلادهن ، يأسروا لهن وعدا بالحب والسفر والزواج والحياة الجميلة لينتهين في طلب زبائنهم للجنس

وكثيرا ما يتعلق الأمر في عواصم العالم ، وفي الاتجار بالبشر سكتت عن الحكومات ، ولكن الأخطر هو ما يحدث للنساء في مناطق الفقر حين يبعث فتيات لا يتجاوزن الخامسة لرجال يتعطشون للجنس مع الصغيرات شغفوا أو خوفا من الإيدز ، ثم تنتهي الصغيرات في مواخير بيع الجسد . وكان الألمان ثم اليابانيون أكثر من اشتروا طفلات تايلاند حتى اكتشفت الفضيحة وضبطتها الحكومة التايلاندية

تداعت الصور وما زلت في صالة القطار ، وتمنيت لو أنني لم أشاهد تلك المرأة في فرانكفورت ، امرأة جمالها غامض تشرق الفتنة أسفل الشعر ، وفي ثيابه مظاهر نعمة وغنى ، يختارها من بين نساء قريتها ويغدق عليها مزاعم الحب والهيام الكاذب وأحلامها الفسيحة ، ويصور لها حياة رغدة يلمسها أمامها بمشقة ، فتسلم له قيادها ، وتهجر أهلها وصباياها ، وتطير مع فارسها إلى بلد الأحلام وعمله ، فإذا هو قواد يتاجر بلحمها ويقتات منه .

ولما رأيت ذلك في نظرات تلك الشابة في ساحة فرانكفورت ، وسمعت في نبرات صوتها إذ تحادثه ولا ترى غيره ، كره وضيق ولوعة لحل إذ يدفعها إلى ما تكره من نفسها ومنه ، ترفض ثم تنصاع ، فقد

امتلكها بالقهر والخداع ، امرأة تَشْتغل مقهورة مسلوبة ولا تملك سوى احتجاج لا ينفع .

يطغى القبح على الجمال في كل شيء ، وتختزن الذاكرة مواقف الحزن أكثر من لحظات الفرح ، تمنيت لو أن أم الكتروت بقيت في مدينة الفن والشاعر غرته والمدارس الدولية ، ولم تصبح لي ذات صباح ، وبلا تخطيط ، من ذلك الوجه القبيح .

***

# قتيلة الشرف ... لا اسمُ ولا عنوان

لا أعرف اسمها ، ولكن سطرها أرهق ذاكرتي واحتلها ليالي طويلة . كانت المرة الأولى التي رأيت فيها طفلاً محتجباً بقنط الروح ، كان ذلك قبل عصر الفضاء ، وقبل أن يصير القتل تقليداً حياً على الشاشات ، جثثاً وأوصالاً وشهداء وقتلى ، فضاعت هيبة الحياة والموت بالاعتياد . .

كنت أسير في منعرج العلم والصحافة ، طالبة منتسبة في جامعة بيروت العربية ومحررة في جريدة تحاول إثبات قدمها ، وقد دخلت الصحافة بعد مقال حرك سهاماً دفاعاً عن مقتل الشرطي وتعليقاً على حادثة قرأت عنها في صحيفة الحياة اللبنانية .

كان ذلك في مدينة بيت لحم ربيع عام النكسة ١٩٦٧ . أستقل سيارة أجرة وأتوجه إلى عمان لإعداد ريبورتاجات صحفية .

تجاوزت الساعة السابعة صباحاً بدقائق ، ونحن أربعة ، أنا بمرافقة في المقعد الخلفي . أنا عن يمين وهي من شمال ، وزوجها إلى جانب سائق هو شقيق زميلة لي في الإعدادية من مدينة الخليل ، ولكنهم سكنوا بيت لحم وولدوا فيها .

وساحة المهد واسعة قبل أن تعج بالناس تتلاصق بهم ، ظلت موقفا للأتوبيسات الأجرة إلى القدس وعمان ، على يمينها مكتب البريد ومخفر بيت لحم ، تظللهما شجرة صنوبر عالية عتيقة ، لا تقطع زينة الميلاد عنها حتى تنتهي أعياد جميع الطوائف المسيحية ، الغربية والشرقية والسريان . وتقابل المهد عمارة صغيرة تحتل طرفها مكتبة ضيقة صغيرة ، أسهمت كتبها في تشكيل معرفتي ، لم ألتق أحد زبائنها العاديين ، شراء واستئجارا ، ولكنها يعود فضل التدريب على القراءة السريعة والمحافظة على الكتاب ، فنسخة الأجرة محققة ، وأي تمزق أو خربشة سيحرم أمي منه ثمن الكتاب ، ولن يحميني من قراءتها ويحرمني من حوافي الثقافة .

بجانب المكتبة محل مسعود من محال الهدايا ، وخلف البناية تماما مسجد عمر ، ولكن ازدحام البشر وسيارات الأجرة في ساحة المهد ظل يضيع هيبة المكان وتفاصيله وقدسيته ، وقد تغيرت كل تلك المعالم في احتفالات بيت لحم بالألفية الثانية ٢٠٠٠ ولم يبق للتاريخ من معالمها صغيرة ترويها .

كنيسة المهد ، أقدم كنائس العالم ، بناها الملك قسطنطين عام ٣٣٠ للميلاد ، ويقابلها مسجد عمر ، ويعود بناؤه إلى عام ١٨٦٠م ، حين زار عمر بن الخطاب مدينة بيت لحم في طريقه إلى بيت المقدس ميمونا من قبلي ليتسلم مفاتيحها ، وحين صلى اختار مكانا بعيدا عن كنيسة المهد ، تماما كما صلى في القدس مبتعدا عن كنيسة القيامة

تجنبا من اختلاف الملتين على مكان مصلى قبة الفاروق . . والتقويم للسكان مختلف في تلك الزمان ، وبالتالي يحتفلان بالأعياد ، وربما على الحقيقة الماثلة أنه ابتعد كثيرا بخيلي الزمان وعلو الأمكنة ، ولكن كنيسة القيامة ومسجد عمر في القدس ، ومثلهما كنيسة المهد وجامع عمر في بيت لحم على بعد مسافة غير قريبة جدا .

تسمى بيت لحم بالآرامية ، وهي اللغة التي تحدث بها المسيح ، بيت الخبز ، جعلها الكنعانيون قبل ألفي عام من ولادة عيسى بن مريم ، وسموها بيت لحم لأن حولها وفي حقولها يُزرع القمح ويحفظ في الأهراء والمخازن . ومن أسمائها بيت أفراته أو بيت آلهة الخصب ، وبيت إيل لاحقا أي بيت الآلهة لاحقا ثم تحرفت مع الأيام واشتهرت بيت لحم .

وأبيتها اسم شائع في الآرامية ويكثر في فلسطين . . ويتوسط بيت لحم بلدتا بيت ساحور وبيت جالا .

بيت ساحور أو بيت ساحوره أو حقل الرعاة ، مكان الساهرين حراسة أغنامهم ، فيها تحت البشارة الأولى لميلاد المسيح ، ظهر كوكب ساطع في السماء يتوجه نحو بيت لحم ويتوقف فوق نقطة فيها ، فتأكد الرعاة أن حدثا غير عادي يجري ، تبعوا الكوكب واستدلوا بالنجم على طفل في مذود ومغارة ، فعرفوا أنه سيكون ذا شأن كبير في العالم ، وتعرفوا إليه فتقاطروا من أماكنهم . . وقد وصل منهم ثلاثة ملوك من المجوس تبعوا الكوكب منذ بدأ مسيره من الشرق عندهم ، كانوا

يحتون من ملك متعاض للبشر ، ويحملون له هداياهم ، وحين توقف النجم فوق مكان الميلاد سجد ملوك الشرق للطفل في مذود البقر وقدموا له ذهباً ولباناً ومراً . .

أما بيت جالا ، فهي مصيف رائع والبلدة الأكثر ارتفاعاً في المدن الثلاث ، وبيت لحم أكثر علواً من القدس أصلاً ، وأقيم فيها على قمة طنطور - وهو الأعلى في المنطقة - مبنى كبير ظل يستقطب الكتاب والصحفيين كما المتنزهين . . وقد اتصلت مباني المدن الثلاث بعد الاحتلال فتشابهت صورها جميعها ، واختلطت إلا من لوحات كبيرة تعلن بداية كل منها .

تلف السيارة مع طريق ضيق إلى عين غزال ، تقطع حارة الفواغرة ثم شارع حمدان بشرق وادي معالي ، كانت جميع متاجر التذكاري أو «المشغولات الصدفية» التي تشتهر بها بيت لحم مغلقة ، وحركة الناس في الصباح قليلة ، وبدا أن السائق يتجه إلى حيث راكب النمر .

يمر الطريق بحافة الجبل وعند سفحه ، يعلو من يمين ، وينحدر بشدة من يسار . . وتتفرق البيوت عند السفح ، ثم تتقارب وتلتحم وتتعالى صعوداً إلى قمته لتعانق مدينة كرست التاريخ وبهائه .

انحرف السائق بنا مع بداية طريق ترابي يصل بيوتاً حديثة ويصعد الجبل . . ارتجت السيارة وصرّتْ عجلاتها ، وشعرنا بخوف ألقانا جانباً - أنا والمرأة بجانبي - حين ارتطمنا بالمقعد الأمامي لحظة اهتزت السيارة وتوقفت في التراب بعنف .

صرخ الراكب متذمرًا ومتعجبًا من صباح بدأ مختلفًا . وارتبك السائق ، سحق أسنانه لحظات ، ثم أعاد تشغيل المحرك ورجع إلى الوراء ، ثم إلى الأسفلت علّه يستعد للانطلاق .

رأيت ما أربكهما من النافذة اليمنى .

قتيلة . .

على الأرض وفي عرض الطريق امرأة في منتصف الثلاثينات ترتدي تاييرًا أزرق بلون السماء ، ارتمت على جانبها الأيسر وتضرج بدماء نزفتها ، ذراعها اليسرى ممدودة على الأرض ، واليمنى تقبض على قلبها ، تتناوب عليها خلجات الاحتضار فيهتز جسدها مع كل نوبة . وحدها في الطريق بين بيتين صامتين متقابلين كأنما خرجت لتوها من أحدهما ، والأبواب والنوافذ موصدة ، وسكون رهيب يخيم على المكان كأنما خلا من أهله ، لا صوت ولا وجه في بيوت المخيم حولها تَسْمَع أو تدري . تسيل خيطًا من الدم ما زال يتدفق من الصدر ، وآخر من البطن بطارف الملابس يغور في التراب . . حقيبة يدها سوداء ملقاة بجانبها ، وغطت شعرها بإيشارب أبيض ربطته عند رقبتها ، وانحسرت تنورتها عن لحمة شديدة البياض يكشف منه جواربها الشفافة . . وتنتعل حذاء أسود .

لعن السائق وجهها برهة كأنما ليتأكد . . وبلا تردد تخلى عن طريق شده بجسدها ، وعن راكب جاء من أجله . . صرّت عجلاته بالسرعة والتراب وانطلق لا يلوي على شيء .

لم ينطق الراكب أو توجه بكلمة واحدة رغم هول ما رأينا .

أسرع بالسائق أن يتوقف ، فالمرأة ما زالت حية ، ونستطيع إسعافها وحملها إلى المستشفى القريب ، فظل مسرعا كأنه لم يسمعني ، ومثله فعلت العائلة .. أشاحت المرأة بوجهها عن وجهي ولوت بوجهها إلى الناحية الأخرى ترقب الطريق .. وأنا ألح وأتوسل للسائق أن يتوقف ، فجرم ما تفعله فهي حية ويمكن إسعافها .. لم يجب ، فقط ، رمقني من المرآة أمامه بنظرة احتقار أشعرتني وإن لم أفهم سببها ، ثم انطلق لا يلوي على شيء .

خيم الصمت الثقيل .. صمت ظفر على موت وأبنائه ، فأسكتنا جلاله وهربنا منه .

يمر الطريق إلى حلحول بالطرف الشرقي للقدس ، بدءاً من منطقة القبة شمال بيت لحم ، حيث يوجد قبة راحيل ، وبالملاصق يوجد مخيم عايدة للاجئين واقع عن شماله .. سميت القبة لأن فيها قبر راحيل ، وهي أم النبي يوسف وزوجة النبي يعقوب ، ويقال إنه حين يصطحبها إلى الخليل ، مرضت على الطريق وماتت ، فدفنها وبنى على قبرها قبة صغيرة

كنا نعجب لإصرار السياح على زيارة قبر قديم مستمر ومهجور . ويبدو أن أكثرهم من اليهود الأوروبيين أو الأمريكيين ، فاليهود يتبركون براحيل ويستنجدون بكراماتها ، وتقليد أضرحة الأولياء تقليد شائع عندهم ، ولقد اهتمت إسرائيل بالقبر بعد احتلال الضفة الغربية وصار

أحد المعالم السياحية التي تروجها .

كان طريق بيت لحم - القدس وحتى احتلال الضفة الغربية عام ٦٧ طويلا وضيقا ومتعرجا ، ويستغرق نصف ساعة أو أكثر ، ويتشعب أمام دير مار الياس على ضواحي بيت لحم إلى يمين وشمال ، والدير كنيسة قديمة بنيت على تلة أحاطتها أشجار الزيتون .. أحيطت سهلاتها الثرية وتشبعت بذكريات التاريخ ، وصخب المعارك حولها وقصص الراحلين والقادمين ، واحتفظ الطريق أعشابها في أحد المطر والشمس بعضها من نقوش وآمال ، مسجلا أسماءها في الليالي المقبل يوما على وجهه ، ولا يعرف أحد هل كتبت أم نقشت آثاره بسهلات عتيقة من عمر سنين .. وحصر الصرود أسماء وقلوب عشاق تواعدوا على حب إلى الأبد ، دون أن يعرف أحد مصير جلوة عاطفة توهجت واشتعلت شبابها ذات يوم .

يحج الناس مرة كل عام إلى دير مار الياس في احتفال سنوي يعيد الحياة إلى مرات المكان ، مراجيح وصلوات وفرح ، ثم يغلق الدير أبوابه على صمت عميق راسخ بهيبة المكان ، لا يزعج هدوءه شيء حتى حركة السيارات من القدس إلى بيت لحم والخليل وقراهما .

يتحدر الطريق من شمال الدير إلى بلدة بيت صفافا ويلتف هناك ، وكان قبل نكبة ٤٨ يصل القدس ، ويتوقف الشارع عند شريط حدودي قسم البلدة شطرين ، نصف أردني ، والآخر إسرائيلي أقرته قوات الأمم المتحدة لحفظ السلام ، وظل رمزا للمعاناة بلدات فلسطينية

كانت تفصل الاحتلال عن أهلها بشريط شائك ، تمر به أعراس وجنازات الأقارب فيشارك فيها الأهل من الطرفين بمحاذاة سياج شائك وبوابة صغيرة فيه .

وقد أزالت إسرائيل الشريط بعد احتلالها للضفة الغربية ، وأعادت فتح الطريق بين القدس وبيت لحم بمحاذاة بيت صفافا ، وطوله عشرة كيلومترات ويستغرق قطعه عشر دقائق .

كانت خطورة الانزلاق على الطريق القديم إلى القدس في أيام الشتاء والصقيع كبيرة ، فهو يتعرج على حواف أودية سحيقة ، ويهبط ويصعد إلى قرى صور باهر والسواحرة الغربية وجبل المكبر ، ثم يهبط إلى وادي النار ، ويصعد ويتسلق الجبل إلى رأس العامود في شرق القدس ، ومنها ينحرف بنا طريقنا إلى عمان .. عبر العيزرية فالخان الأحمر ثم أريحا والسلط قبل العاصمة عمان .

كانت الجبال ما زالت تزهو بالربيع في بداية أيار مايو .. بساط العشب وبقايا ألوان صفر أو حمر متناثرا ، والشجر أوراقها يانعة وبيوت والمستوطنات بشكل طويل .

نصل عمان دون أن ينبس أحدنا بكلمة .. واشتركنا في صمت كأنا كل يهرب من الآخر وما شاهده .

ولكنني ومنذ رأيتها تنتفض باختلاجات الموت وتتوقف ، لم أعد أحتمل رؤية الدم ، أو مريض في النزع ، ولم أقترب من ميت حتى توفي والدي .

كانت أمي تشرب القهوة وأبي يستعد للخروج حين سمعتها تحدثه بالأخبار، عن تشكيل عصبي في قرابة عشيرة غسل عار في بيت لحم - والله إنه زلة، معلوم، مهو مش معقول بيمشوا موطين راسهم بالأرض كل حياتهم، طبعا الثأر ولا العار.

وأمي تلح على ذاكرته التي يستعصي عليها تعلقه على أهل وأهل القتيلة.

ولد أبي في بيت لحم، وعاش فيها طفلا لم يغادرها. ثم الصبية، وأبوه أحمد كسارها، وحين لاحق الأتراك جدي قبل الثورة العربية الكبرى جمع ماله كله واصطحبه طفلا وهاجرا في عرض الزمان أكثر من عشر سنين.. سكنت جدتي مع أهلها وماتت أمام عسكر الأتراك أنها انفصلت عن جدي ولا تعرف له سبيلا.

استعاد أشغالها وأبناؤهم سلبها ليهاجروا إلى أمريكا لم يستعيدوها وأبي، ولكن أحدا منهم لم يعد أو يفكر بالسداد أو يرسل في طلبها.

على أبي، تستحضر ذاكرة رجل مثقلة بأسى حياة غير نسب امرأة قتلت:

- ألا تذكر العائلة الغريب جارتنا أم سامي.. من أجرى حسابه البيت قبل أربع سنوات؟..

يشحذ فكره.. يتفقد صبرها.

يتذكر.. اسم العائلة المسيحية التي يمشي إليها الرجل وزوجته

ابنة عمه ، تركت طفليها وهربت ، ثم ضاع أثرها في باص متوجه إلى القدس . . واختفت

مر شهر طويل وأهلها يسألون ويبحثون ولا أثر . . ثم اتصل بهم أحد رجالات عمان ، ليؤكد أن ابنتهم في بيته «طليقة أو دخيلة» .

أعيدت الهاربة إلى أبيها . . وباشر زوجها إجراءات طلاق مسيحي بسبب «الزنا» .

وبدأوا يحضرون لشقيقها القاتل ليغسل عارهم .

انتظروا ثلاث سنوات ليكبر عيسى شقيق ، «وحشوه» لمهمة لا يستطيعها غيره ، فالأخ الأكبر رب عائلة ومثله والدهما ، وكلاهما تعهد للمحكمة خطيا بعدم المساس بها ، ولو حصل فستعتبر جناية قتل مع سبق الإصرار لا جنحة شرف يُخفّف الحكم فيها ، وستسترد عائلاتهم بعد فضيحة هزت بيت لحم .

غاب عن القانون أن طفلا سيكبر وهم يلقنونه أن شرفه مرمي في التراب ، وأنه يصحو على أصوات تحرضه ضد من أزكت شرفهم ، وتستعجله قتلها وتخليصهم من عارها ، وأنه أملهم الوحيد في إسكات ألسنة الناس ، لسنها السليط سيصنع نظراتهم ومعايراتهم ، وهو وحده قادر على استرداد شرف سليب لامرأة لم تعد منهم ولا حُسِبت عليهم ، وما فعلته يستحق القتل ، وقد حكمت على نفسها به ، ويعدون الأيام ليكبر ويستعيد شرفا تلطخ ويرفع رؤوس رجال طأطأت بفعل العار . . .

الفتى الصغير بأن سفك دم شقيقته سيكون كفارة الراحة وخلاص أهله ونفسه ، وأنه سيرتفع على جثتها في عيون الآخرين ، وسيحميه القانون ويتعاطف معه ، ولأنه حدث سينال حكماً مخففاً في جريمة شرف . وسيخرج من سجنه بطلاً ورجلاً حراً لم يقبل العار .

فهل رأت تلك الفتاة تنامي الكره والحقد في عينين صغيرتين تتفحصانها وتلمحان وتكبران على رغبة التخلص منها؟ هل لمست تصميمه على قتلها في نبرات صوته؟ وهل أحست القهر والنفور في عينين صغيرتين وهو يطلق الرصاص دون أن يرف له جفن؟ هل طال حقد بخناجرها وهي تذرف فوق التراب روحها ودمها؟ أم حين وركلها وخطا فوق جسدها وأكمل إلى مخفر الشرطة؟ أم تراها عرفت منذ أمد ولكنها استسلمت لموت يريحها؟

أحسست والحق بأنني رأيتها تموت . . ولكنها كانت ما تزال تستطيع بينما التراب يمتص دمها ، وأن القاتل رفض إسعافها وهرب من المكان مسرعاً .

يقول والحق إن القاتل مغرور وضل صوابه ، فإسعافها سيخلق له مشكلة مع البوليس وهو في غنى عن تحقيق يطاله ، ثم استدعائه شاهداً في المحكمة والمحكومة سبقها طويلة ، ومشكلة أخرى مع أهل الفتاة فلن يسامحه رجال عائلة من حقهم الخلاص من ابنة لوثت وعرفت شرفهم ، وأتساءل في سخطي : هل إنسانة مثلها لا تستحق المساعدة .

أما التي ثكلت أكثر حساسية وهي تعلم القاتل المستتر ، فالقتيلة بنطفتها دمرت مستقبل شقيقها القاتل ، تلك الفراسة حين لم يحتمل ما يقوله رفاقه فتصغر عنها ، ويتركون سيرتها أمامه ، فلم يعد يجرؤ على الخروج أو اللعب مع أقرانه لئلا يعيرونه بها ، ولم يغادر وقتها بيته منذ الحادثة ، وأخوها الكبير يخرج متخفيا بالقبعة العصري ، بالنظارات والقلنسوات لوقت احتماله .. أما زوجها المعتكف في المنزل لا يفتح بابه أو يخرج إلا مضطرا حتى ويطلبوها ، وحين عادت أهلي بها إلى أهلها وطلقها ، تأففا وأنها أولى بغسل عارهم من زوج وابن عم ..

لم تفطن القتيلة إلى أن المستتر تعرب وأنقلص ومن الدار بعيدا عنها .. وصدقت أنه يريد اصطحابها للصلاة في مسجد «الخضر» ، واطمأنت للخروج ، لأول مرة من حبسها في الدار ، مع صبي ، وقد مر على الحادثة ثلاث سنوات انتظرت فيها الموت كل لحظة فلم يأت ، فظنت أن الأيام أرشفت النزف وحريق الجرح فتطهر قصورا .. أو صدقت حبا وعطفا من ولد يصر عليهما بالخروج مبكرا قبل ازدحام الدير والمصلين ، فتصلي وتعود دون أن يشهدها أحد

استعدت للخروج بأجمل العطرات ، ووعده للمسجد الأخضر أن يقتل القاتلة في مصلى من حولها .

وكنيسة «الخضر» دير قديم على الطريق بين بيت لحم والخليل قرب قرية ارطاس وبرك النبي سليمان الثلاث ، منطقة زراعية خصبة

لتشتهر بجودة وطعم خضارها وفواكهها . . كالسفرجل والتين والخوخ والبرقوق .

والخضر ، أو «مار جرجس» يعني «القديس» جرجس أو جورجيوس أو جيورج ، فارس فلسطيني ، ولد في اللد في القرن الثالث الميلادي ، وهو من أنبياء الله يبجله المسلمون والمسيحيون على السواء ، ويحتفلون بعيده معا .

والخضر مزارات في العراق وسوريا وفلسطين والجزيرة العربية . ويعتقد بعضهم بأن خطواته كانت بمقدار ما تبصره عينه ، ولهذا تعددت مزاراته في الدول العربية فقد كان سريع التنقل بين أقطارها وفي مساحات مقفرة ظهرت بالعمران ، فالخضرة ملونها الأفق .

كما يعتقد بعض المسلمين بأنه ما زال حيا ، وكثيرا ما تسمع النسوة في القرى يسألن ويصحن بـ «يا الخضر الحي أجيرنا!!» والخضر صورة شهيرة يزين بها أهل بيت لحم مداخل بيوتهم ، كما تحتل الأيقونات وأعلاما رياضية في العالم ، وذلك كفارس على صهوة جواده في ملابس خضر لا يظهر لونها ، وهو يطعن تنينا ضخما برمحه ويقتله . وثمة في الخلف عروس حسناء بملابس بيض وقد عقدت ذراعيها على صدرها ترقب المعركة في شرف وتضع التاج على رأسها .

ويُعتقد بأن حادثة انتصار الخضر على التنين وقعت بين تركيا وسوريا . . لخلص الخضر تلك المنطقة من تنين ظل يسد منبع النهر بجسده الضخم ، فيموت الزرع والضرع ، ولا يُفْتَح المجرى إلا حين

يلتمسون له شالا أو غطاء ليلبسه ويختفي حتى موعده في العام القادم . وقد وصل الدور في التضحية إلى ابنة الملك ، طلبت كعروس وانتظرت بالكنيسة ظهور التنين قرب الماء ليفترسها .. وأما الفارس الأخضر وسألها عن بكائها .. فترصد ظهور التنين ثم حاربه برمحه وقتله .

ويحتفل المسلمون والمسيحيون في منتصف أيار من كل عام بذكرى انتصار مار جريس على التنين في دير الخضر الفلسطيني .

استغل ذلك البائع القاتل مناسبة دينية يتقرب بها إلى شقيقته لتكفر له ، ويريها أنه ليس كالآخرين يقسو عليها ، وأنه يصدق عكوفها على الصلاة والصوم وندمها على كل أعمالها ، ويعطف على دموعها ، ولم يخطر ببالها أنه ربما شبها الحلم شرفهم ومستقبله ، وسيطعنها في يوم الخضر برصاصة ، وأن حنين الحقد كان يكبر ويستبد في خلايا مخه .

لعل الشقية استشعرت السلامة تتوسل بها إلى ذلك القديس ليرحم ذلها وعارها وحبسها الطويل في المنزل .. أو أرادت أن تسجد قليلا للخضر حين اعتقدت أنها سلمت من القتل ونجت من إيذائهم ، فقد مرت ثلاث سنوات ، وحسبتها كافية لتنالها حياة جديدة آمنة ، لقد عاشت كل لحظة فيها بطيئة ثقيلة في ترقب موت لم يأت

كل الاحتمالات جائزة .

خرجت مع شقيقها الصغير إلى دير الخضر هذه السنة ، تركت ترجمان

قليلة إلى وسط الطريق الترابي ، سبقتها الباقع عطرات وأطلق النار . . على صدرها وبطنها . . ليشهد المارة على بطولته ، ثم غطا فوق جسدها وركض إلى مخفر الشرطة معترفا مزهوا .

أي حقد أوغر صدر طفل واحتل عقله لتصير شكيلة في شغف صدره ملكية يزهو بخلاصه منها؟ .

تروي أمي قصة شكيلة فتهاجمني مواقف عابرة لم أربط بينها حين وقعت .

لم يكن زوجها دخلا فقط ، كان يعمل في أي مهنة تتوفر دون قدرة على الاستمرار أو الجدية ، ثم قرر أن تكون له ورشا صغيرة لصيانة المنازل ، الصرف الصحي والدهان والبلاط .

يومها رأينا الرجل .

كنا نسميهما مراهقات أو طفلات حين قرر والدي صيانة شقة المنزل في عطلة الربيع لتعاون أمي . تجيء مع عاملين

أكثرت أمي من الشاي والقهوة للعمال في طقس بارد . ولا بد أنه حرف أسماءنا ونحن نتنادى بها .

نهرتنا أمي لأننا نختلط بالعمال ، فعلبة من ألوان الدهان تسقط على الأرض بينما هو في أعلى السلم ويطلب منا أن نناولها ، ولكنها تظل تقع فنلتقطها من جديد . . ولم تقل إن إحدانا حين تنحني لالتقاط ما يقع يبتسم ضاحكا ، ويشاركه العامل الآخر .

تعرف الطفلة أن شيئا ما لا يجوز حين يتعلق بها ، إحساس

فوزي بنسيها وإن لم تستطع تحديد الخطأ أو تقدير خطره ، ولم تكن تعرف .

وبقيت أمي حتى ماتت . لم أتفهم غضبها ، حبستنا في غرفتنا ، ولست تلمس أنا جسدي وجنس الرجال ، وعيونهم الزائغة وقلة حيائهم . ولم نفهم لماذا منعتنا من الخروج حتى ينتهي العمل ، وبأن تنادي العامل بكنيته لم يخطئها ، ليتناول منها الشاي أو القهوة ومن باب المطبخ فقط .

اكتشفنا غرابة الرجل بطارشنا لم سامي بعد أن كنه بحسل ، وتحدثت بإعجاب كبير عن زوجته ابنة عمتها ، فهي مثل القمر ، وقد أجبرت على الزواج منه رغم أن أفضل شباب بيت عم تقدموا لخطبتها ، ولم يختلف أهلها لمعارضتها ، فقد كانوا إعجابا بينا بابن الجيران ، شاب متعلم وجاد ، لكنها بدأت تسمعها خيوط العيون والابتسامات ، فأرغموها على الزواج من ابن عمها المتخلف ، فهو أولى (بلحمه) من الغريب مهما كان وضعه ، وقد هاجر الحب إلى أمريكا حين لم يحصل عليها .

بقيت صامتة متحفظة أمام ما سمعت .

تغير الرجل منذ رأته جارتنا . . لم تعد نظراته وقحة ، ولم تسقط أنظاره عن السلم حتى أنهى عمله .

لمحته مرارا وعيناه تلاحقان طالبات الثانوية في جرأة ، خارجات من مشمسة الطويل في فرس الزوارة اللاتي إلى المدرسة ، وهي

حوتها تربة من كنيسة المهد .

وقوس الزرارية زقاق ضيق مظلم يحاذي سور كنيسة المهد ، وينفتح عليه بابها الخلفي الصغير ، وهو أحد أقواس بيت لحم القديمة . . خلف القوس بيوت من التاريخ ، ومطهر ، وعند مدخله آثار سبيل للعابر وبئر سقاية لها ، والطريق حجرية ضيقة عرفت أقواسها أشباه المشاعل ثم الفوانيس قبل الكهرباء ، وغرف صغيرة تتعلق بأدراج حجرية تجاهد القليل من الضوء . . وسكانها حين مررت بها في بداية مرحلتي الإعدادية ، مسلمون ومسيحيون ، ممن لا يطيقون تكاليف الانتقال إلى مناطق جديدة توسعت فيها بيت لحم الحديثة .

رأيت الرجل ذات صباح فدهشت ، يسير ملتصقاً بطرف الطريق كلص ، يطرق إلى الأرض في ذل وانكسار ، ويشيح ببصره إلى السور ، يتلثم بالملاءة السوداء والبيضاء لا يبرز سوى عينيه ، حائر لا يرى أو يلوي كأنما يتجنب رؤية أحد

تعجبت ولم أفهم . . ثم نسيت . . فالقصص في ساحة مدرسة البنات مثيرة . . أمتعها صراع الكهنة في كنيسة المهد ، وإن أمسى للطائفتين حدثاً عادياً في تكراره .

يتنازع كهنة الطوائف والقساوسة على حصتهم وحدودهم من الكنيسة الصغيرة فوق المغارة حيث ولد المسيح . . فيقسمونها بخط وهمي ، كخطوط الطول والعرض والقارات على الكرة الأرضية ، ويترصدون في توتر أن يتجاوز كاهن من الطوائف الأخرى حداً رسموه

بالطباشير ، أو بصمات الدول على أرضية صخرية ، خطوة واسعة داخل عمود ليست له فتحات للحركة العلمية ، ونسمع من ساحة الكنيسة قرع الأجراس فنعرف أن كهنة الطائفتين المتنازعتين يستحضرون بعضهم للقتال .

ولقد رأينا يوما عند انصراف الكنيسة كاهنا شابا ، وجهه وسيم وبريء كوجه قديس في أيقونة مسيحية ، صغير السن يشرق النور وجهه ، وقد شُجَّ رأسه بعصا غليظة ، ويخرج مترنحا من الباب الملكي للمهد ويبحث عمن يسعفه ، بينما يلحق به كاهن طائفة أخرى بهراوة .

طغت قصة ضرب الكاهن الجميل على أحداث كثيرة ، فقد ظلت معظم الطالبات يتهامسن عن جماله ، ويتحسرن على ضياع شاب وسيم كأبطال الأفلام الغربية ينتظره الكهنوت والعزوبية لا الحب والإعجاب .

بنيت كنيسة المهد على المغارة التي ولد فيها المسيح . . وأكملتها الملكة هيلانة عام ٣٣٠ للميلاد .

تحت كنيسة المهد مغارات وسراديب وبئر تحوي جماجم أطفال أمر بقتلهم الملك هيرودس ، فقد أخبره عرافه بولادة ملك لليهود في بيت لحم ، ولم يستطع تحديد الطفل أو يوم مولده ، فقرر الملك قتل جميع الأطفال في المدينة ممن تقل أعمارهم عن سنتين ليطمئن على عرشه ، وألقيت رؤوس الضحايا في البئر ، ثم اكتشفت أثناء الحفر لأساسات

كنيسة المهد .

عند الطرف الجنوبي للكنيسة بوابة تقود إلى مغارة الحليب ، كهف جدرانه وسقفه بيض جيرية ناصعة ، ويعتقد بأن المغارة اكتسبت لونها من نقطة حليب سقطت من صدر العذراء مريم على أرضها بينما كانت ترضع طفلها . مكان لجأت إليه واختفت فيه وطفلها خوفا من عسكر الملك ، وقد هربت العذراء بعد ذلك بابنها إلى مصر .. ويعتقد كثيرون أن لتراب سقف المغارة قوة عجائبية ، فإن أذيب قليله في ماء وشربه مريض يشفيه حتى من السرطان .. وعلى جدرانها شهادات وقصص كتبها أصحابها عن جدوى التراب فشفوا ، لتكون شاهدا على مزارا معجزا ..

تطل مقبرة اللاجئين القريبة من المهد على الملعب الخلفي لمدرسة البنات ، ويقال إنه كان جزءا منها اقتطعته البلدية وبُوِّرَ وألحق ملعبا لمدرسة البنات الحديثة .. ولكنه ظل نائيا لا تقربه الطالبات في أي وقت ، حتى في حصص الرياضة البدنية رغم تجهيزه ، فلم يجرؤ فريق رياضي أو طالبة أن تتحدى صمتا موازيا لجلالة حدود مقبرة تعلوه وترصد خطوات فيه ، وتراقب من عل أي عبث من الأحياء بجزء نهب منها ، فتحتفظ حمايته من تشتت لهويتهم على من الجوار .

تتناقل الطالبات قصصا عجيبة عن أرواح أصحاب القبور المجروحة ، وأنها ترفض مغادرة الملعب ، وتعتبره ملكية تعدى الأحياء عليها وتريد الانتقام منهم حين أرغموا توسعها لأبنائهم ، وتتلاشى ،

الأرواح من يسيطر عليها حتى بلا قصد ، فالأرواح تلتصق بالتراب والأمكنة حتى أجسادها .

كان التحذير من ويلات الأرواح في الملعب الخلفي هو أول ما يهمس في أذن المستجدات .. فالبنات من بيت ساسين وبيت سقالا والهيمات وبيت جالا يكملن المرحلة الإعدادية والثانوية في مدرسة بيت ملم .. وتبوء كل محاولات الإدارة لإقناع الطالبات بافتقاد الفسحة فيه بالفشل .. ومع الأيام غدت أسرار المدرسات ، ومنها التقل الخوف المزمن من أرواح لا تفرق بين معلم وتلميذ . فتلك المدرسة كلها تتكدس في الملعب الأمامي كل فسحة وفي أي نشاط .

أما الرعب الحقيقي اليومي للطالبات فيتمثل في التعامل مع الحمامات ، وقد بنيت عند أول الملعب الخلفي .. وانتشرت قصص مخيفة عن إطلاق الأرواح على عنق من تدخل الحمامات وحدها ، فتبدأ الأرواح بالصراخ والزعيق ثم تهاجمها وتحاول خنقها .. ولهذا يشتد الزحام عند الفسحة على استعمالها في الفسح ، فالطالبات تدخلن في حضور الجماعات .

يطل الملعب الأمامي لمدرسة تتوسط الجبل على بيروت شمالاً ، ويواصل طرق المدينة القديمة بدرجات حجرية واسعة .. بينما يطل الملعب الأمامي على طريق ومدرسة ابتدائية للبنين وبيوت .

في ساحة الملعب الأمامي تنسى الطالبات قصص الجان والأرواح ، وتصير مسرحاً لاستعراض المواهب ، الغناء والتميز بالقراءة

واستعراض عضلات المفرقة ، وتباطؤ القصص والروايات ، وتهامس بعض الفتيات بالأخبار السياسية ، فقد كانت فترة ازدهار إذاعة صوت العرب وتعليقات أحمد سعيد أشهر مذيعي العالم العربي يومها ، والذي اهتم بتضليل الناس حين ظل يؤكد أن العرب انتصروا في حرب ٦٧ ، وأن القوات العربية وصلت إلى تل أبيب بينما كان الطيران المصري قد ضُرب منذ الساعات الأولى ، وسقطت القدس وحكم الاحتلال براية منتصرين ووضعوا القدس تحت سيطرتهم قبل أن يعترف العرب بالهزيمة

وقد خطر لي أن أكلم أحمد سعيد في لقاء تلفزيوني ، وسألته متى عرف بهزيمة ٦٧ التي غيرت التاريخ العربي الحديث منذ يوم الاثنين ٥-٦-٦٧ أي منذ الساعات الأولى للحرب ، ولكن طُلب إليه أن يرفع معنويات الشعوب فيشجعها ويزيدها أملا بالمعارك ، لأن جبهات العرب الأخرى – سوريا والأردن – تحتشد ، ولكن .. هزم الجميع

أما الأخبار التي لم تكن تنضب أبدا عند الطالبات فهي أخبار المطربين والفنانين وأفلام السينما ، وكان عبد الحليم حافظ وأحمد رمزي يسبيان قلوب الطالبات .

ذات صباح شغلت المدرسة بقصة واقعة ، فضيحة مدوية هزت بيت لحم ، عن شابة جميلة متمردة تركت بيتا وزوجا وأطفالا وهربت .

وتكون محصلات المراهقة المكبوتة قصصاً تشبه ما نراه في الأفلام والروايات ، انفجرت من تفاصيل الحكاية صورة الفتاة وملكت عليه ، وبهت . لذا كان يسير منشغلاً كلص ، طفلاً يتجنب الناس ويستر وجهه .

هربت زوجته وابنة عمه وتركت له البيت وطفلين ، ولا يعرف أحد ، أين أو مع من .

احتوت مدينة صغيرة قصة امرأة شابة شابة وجميلة ، وحين تكون الواقعة في مدينة صغيرة يعرف كل الناس بعضهم ، يجتمع الرجال بالقصص وشطحات الجنس والكبت والحرمان .

تعددت الروايات .

قالت جارتنا أم سامي وهي تدين ابنة عمتها :

- مستحيل أن زوجها قاس ، يضربها لأي سبب ، ويمنع عنها المصروف وهو عاطل معظم السنة وكسول ، ويتطاول حتى على أهلها ، ويشتمها ويهينها أمامهم بلا سبب ، وينالها ضرباً بينما الصغار يسمعون صراخها .. إلا أن هذا لا يدفعها حتى مغادرة منزلها؟ المرأة الشريفة لا تفعل هذا لأي سبب!! ، ومستحيل أن والدها وأخاها الكبير يئسا من إصلاحه .. ولم يعد لها منفذ إلا أن تصبر وتتحمل حتى يكبر أطفالها .. فلا أحد منهما يستطيع إعالتها مع طفلين .. وهم أولى بعيالهم ، مع هذا كله ، كان عليها أن تصبر .

يوم أعادها والدها إليه ، ضربها وأهانها أكثر .

تتناثر القصة من روايات العابرين .

في يوم الواقعة توحش الزوج كما لم يحدث من قبل . تساقطت ضربات أسورة ذهبية صغيرة هدية من والدها يوم تزوجت ، وهامت على وجهها لا تعرف إلى أين .

ظل يضربها كلما تذكر أنها لا تطيقه ، أو تذمرت من حياتها الصعبة ، فقد صبرها .. تركت له حذاءها وطفليها وهامت لا تعرف إلى أين ..

والحكايا تزعم الكثير في الحكي ، وهي تقدم الظروف .. هي قلة الوعي عند كثير من النساء .

لعلها تصورت أن الخلاص سهل ، تتوجه إلى مكان لا يعرفها فيه أحد ، تعمل وتختفي وتهدأ من جحيم يطاردها وحدها ..

أدرك السائق مشكلة امرأة جميلة ساذجة حائرة تبكي طوال طريق لا تعرفه ، عرض عليها المساعدة حين توقف في محطة فاستشارت وترددت . أدرك أنها غريبة وتهرب من مشكلة .. قبلت عطفه بقبولها ، وأعطته اسما ليس لها ، فأبقاها في بيته مع زوجته وأبنائه حتى هدأت ..

وحين توسمت فيهم الخير صارحتهم بتفاصيل مأساتها ، وطلبت مساعدتهم لتعمل وتختفي من حياة رجل شرس .. قبلت زوجته وجود غريبة جميلة في بيتها على مضض ، ثم انقلب تعاطفها غيرة وشكا حين أحست إعجاب زوجها بها ، تذمرت في وجهها وهي تحس

لن حظها قد يكفلها بيتها . طردتها وأقسمت أن تبلغ أهلها . . صحبها السائق إلى منزل أحمد رجالات عملا ليحل له مشكلة وضع نفسه فيها .

أعادوا الهاربة إلى بيت حليم .

تتوافق أم سامي وأمي على تخطئتها حين هربت . فتقمص معاناة النساء، لا تحصى ، ولكن واحدة منهن لم تجرؤ أن تفعل مثلها . . وخروجها من منزلها عار يستوجب الموت ، فلا أحد يعرف ماذا حدث بين هروبها وعودتها . ومن يصدق قصة حلب وعطف لوجه الله من سائق غريب على امرأة صبية جميلة هاربة ووحيدة ، وهي مسيحية وهو مسلم؟ أو أنها التقت بلا معرفة أو تخطيط ثم يخطفها شهرا كاملا ، ثلاثين ليلة بثلاثين خلوة محمومة لا تراقبها

تواطأت القبيلة الجنسية بقصص لن يراقب صدقها سوى الدم .

أتذكر قشلة بيت حليم كلما قرأت من جرائم الشرف . . أتصورها الأزول يتحسر عن ساق خدمة الباقي ، فتنقطع ويهتز جسدها بالموت في استسلام ، تنزل منها ويوسعها عند عتبة أبواب مشتى دونها ، يمشي فوق جثتها خلال قتلها ، ويتركها سائق عابر ولم يلمس الحياة فيها .

* * *

# نساء على المفارق

◆

رأيت ما أربكهما من النافذة اليمين :

فتاة ..

على الأرض وفي عرض الطريق امرأة في منتصف الثلاثينات ترتدي تايوراً أزرق بلون السماء ، وقفت على جانبها الأيسر وتضرع بشفاه نزفها ، ذراعها اليسرى ممدودة على الأرض ، واليمنى تقبض على قلبها ، تتناوب عليها خلجات الاحتضار فيهتز جسدها مع كل نوبة .

أصرخ بالسائق أن يتوقف ، فلعل أنها ما زالت حية ، ونستطيع إسعافها وحملها إلى المستشفى القريب ، فظل مسرعاً كأنه لم يسمعني ، ومثله فعلت العائلة .. أشاحت المرأة بوجهها عن رجائي ، ولوت بوزها إلى الناحية الأخرى تراقب الطريق .. وأنا ألح وأتوسل للسائق أن يتوقف ، فحرام ما نفعله ، فهي حية ويمكن إسعافها .. لم يجب فقط ، رمقني من المرآة أمامه بنظرة احتقار أخرستني وإن لم أفهم سببها ، ثم انطلق لا يلوي على شيء ..

خيم الصمت الثقيل ، صمت تآمر على موت رأيناه ، فأمسكنا جلاله وهربنا منه.

◆